

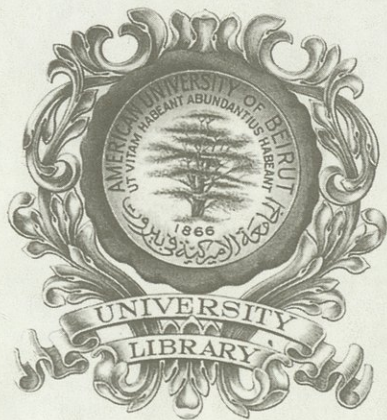
اشهر
العشاق



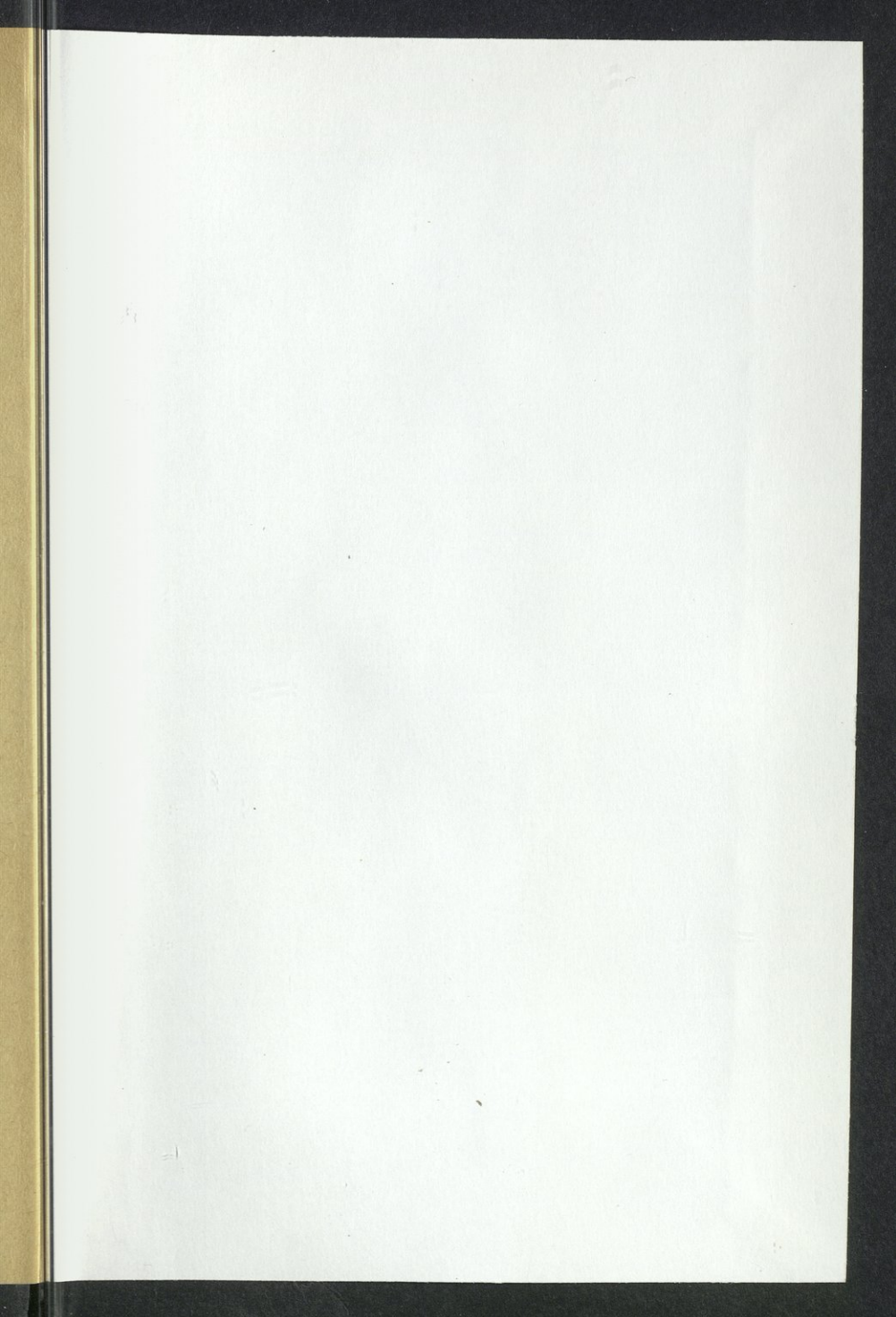
بودلير في حياة الغرامية

LIB. LIBRA

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



QUB. LIBRARY



848
B338 YmA



كميل موكلير

٣

بودلير

في حياته الغرامية

ترجمة : الياس ابوشبكه

منشورات دار المكشوف

للمعرب

تأليف :

افاعي الفردوس

الاحان

روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة

الى الابد

نداء القلب

ترجمة :

اوسكار وايلد امام القضاء

بودلير في حياته الغرامية

صدرت كلها في منشورات دار المكشوف



الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، آب ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

نوطنة

ان عنوان هذا الكتاب دليل على ان صفحاته لا تتطوي على دراسة نقدية أدبية في شعر بودليز أو نثره ، بل تتطوي قبل كل شيء على علاقته بالنساء ، وعلى كيفية فهمه للانوثة ولحب الجسدي أو العاطفي . وبدنيّ انه من الصعب جداً فصل الانسان عن الاديب ، فكلاهما ملاصق للآخر . وانه لمن السهولة بمكان ان نقصّ قصة غرامية عاشها انسان ليس سوى انسان ، ولكن الاديب ليس امرأً كسائر الناس ، فهو مخلوق مزدوج - هو رجل يسكنه أديب ، وهذا الاديب يتكلم بلسان الاثنين معاً ، وفي أدبه نجد الجواب عن معظم أحجياته وألغازه . ولا بد لنا ، شئنا أو أبينا ، من مراجعة كتاباته لتتقهم اعماله الحسية . فكل ما احسه بودليز وبلاه عبّر عنه واعترف به في قصائده ونثره ومذكراته . فبودليز هو في عداد الذين لا يمكن فصل حياتهم عن استنباطهم الادبي . لقد افتتحت حياتي الادبية عام ١٨٩٠ في وسط ادبي وفي يقال له «الرمزية» كانت فيه بودليز بمثابة إله لا يس . وكنت في الثامنة عشرة من عمري ، أعجب بشعر بودليز ونثره ، وقد خيل اليّ أنني ادركت كل ما فيها من الجمال ،

ونفذت الى كل ما فيها من العمق . والواقع ان مجموعة «زهرات شر» لا يفهمها الا المحتمرون الذين عاشوا وعانوا وشقوا . وقد اتضح لي ذلك حين أعدت قراءتها فيما بعد . ولا أزال واثقاً من أن شاباً حديث السن لا يقوى ادراكه على تجاوز الظواهر في شعر هذه المجموعة الفريدة .

ولئن كنت اخطئ في فهم ما انطوت عليه دفء الكتاب وفي تفهم شخصية الرجل الذي ألفه ، فلا مندوحة عن القول بأنه لم يكن في محيطي من يستطيع ان يهديني الى الحقيقة . فبودلير كان قد مات منذ ثلاث وعشرين سنة ، وغمر سكوت طويل اسمه وكتابه الذي كان يقرأ بتكتم شديد وينقل تحت المعاطف . وكانت القصة الطبيعية تحتل المسرح ، والشعر يتشطح في تقليد هوغو أو ينكمش في نطاق البارناسية الباردة . وما أن حل العام ١٨٨٥ حتى ظهر رد فعل مزدوج مع القصة التحليلية التي جاء بها بول بورجه ، ومحاولات تجديد الشعر الذي كان بول فرلين واستيفان مالارمه يجمعان عناصره ومواده ، وقد اعتمد كل منهما طريقة تختلف عن الاخرى . ولم يكن فيما يختص ببودلير سوى الدراسة الممتازة التي حاول بها بول بورجه إحقاق حقه والتسلل الى اعماق الحقيقة المجردة عن روح هذا الملت المرذول الذي لم يكن النقد الرسمي يتكلم عنه ، اذا تنازل

الى ذكر اسمه ، الا كما يتكلم عن مسخ . بيد ان مؤلف بودلير بقي دائماً مدار اعجاب جمهرة صغيرة من الناس . وقد انتقل هذا الاعجاب الى جيلي بكثير من التوعدة والتحفظ . فقد كنا جميعاً مأخوذين بمجال ذلك الشعر العجيب ، عاقدين النية على اطراء الرجل الذي كشف لنا ايضاً عن ادغار بو واعطانا العام ١٨٦٣ تلك الصفحة التكميلية عن «تانهوزر» . وكنا كذلك ملتبين رغبة في الانتقام لسمعة الشاعر ، ولكننا لم نكن نعرف شيئاً راهناً عنه حتى جاء الباحثون المدققون كالوجين وجاك كريبه ، وفيلي غوتيه ، واوكتاف اوزان ، وشارل كوزان ، وادوار شامبيون ، والفونس سيشه ، وجول برتو ، وفرانسوى بورشه فأثبتوا الآراء الاولى التي جاء بها شارل اسيلينو وتيودر بانفيل ، وشجبوا الاكاذيب المغرضة التي اوردها امثال سانت بوف ومكسيم دي كان . وظهرت الرسائل ونُشر ما كان مطويّاً ففرغت سمعة بودلير مما تراكم حولها من الاقاويل ، ولكن تبين ان بودلير هو الذي تعمد تجسيم هذه الاقاويل ، وهو الذي تلذذ بالافتراء على نفسه والاستهزاء بها .

معلوم ان كل اديب مبتدع يُنكب بمحاكين مشوهين يخيل اليهم انهم انما يقتربون من نبوغه اذا هم انتحلوا اخطاءه . فهم يتصورون ان كاتباً لا يحتاج الى اكثر من

ان يكون سكيّراً ليعدل بو ، ومتشرداً ليشبه فرلين ،
وغامضاً ليواصل مارلامه . فقد خلّف بودليو المنحول طائفة
من المقلدين تظاهروا بمظهر المغرمين الصاحين ، او امرء
الكسل والسأم ، او فرسان الضباب والفجور . ففي قصائد
بودليو بعض التصنع والتفاوت في القالب والتعبير ، ولكن
اتساع خياله وسموّ بلاغته ودقة نظره ليست مما يجارى .
وكان ان الصور الفاجعة التي ادخلها على الادب حملت
الناس على ان ينظروا اليه نظرهم الى خليفة من خلفاء
الادب الكافر الملعون او الهالك . فتألم في نفسه كثيراً من
هذه المبالغة في تصويره . وبقيت الاساطير تحوم حول
الشاعر حتى توفاه الله ، فهبّ صديقه بانفيل واسيلينو لانتقاد
سميته ووضعه في المكان الجدير به ، وحذا حذوهما من
ذكرنا من البحّاثين المدققين .

لقد قصرت همي على إظهار علايق بودليو بالانوثة والحب .
ولكن هذه العلايق تحتل مكاناً عظيماً في ادبه . وثمة ابواب
لتفهم هذه العلايق لم تكن معروفة قبل العمل الاستقصائي
الطويل الذي شهدته طوال خمس وثلاثين سنة . فهناك
وراثة بودليو ، وعوامل القربى التي اثرت فيه ، ودراسة
حياة النساء اللواتي عرفهن ، ورأيه في الانوثة بوجه عام ،
ونقله هذا الرأي الى شعره . وهناك ايضاً الحقايق الواقعة

التي تفرض نفسها فرضاً بالرغم من رغبته في الكذب على نفسه وعلى الآخرين . فالتدقيق في كل هذا يمضي بنا بعيداً في تحليل روح قاست من الشقاء امرء . فبودليو كان من اشقى الناس جميعاً ، ولكن كبرياه كانت تأبى عليه الظهور بمظهر من يوحى الشفقة . اما اليوم وقد عرفنا كل شيء فلم يبق بوسعنا ان نرفض منا تلك الشفقة التي كان يأبأها ، راكماء الاخطاء والتحديات ليخفي بؤسه العظيم . والواقع انه ليس في الناس من يستحق الشفقة اكثر من هذا الساخر . ولكن هذه الشفقة لا ينبغي لها ان تنسى ما يجب لها من الاحترام . فهذا المسكين ، هذا المعوز المزدول الذي توارى قبل الاوان في ابشع انحطاط جسدي وعقلي ، كان اميراً من امراء الادب ، مهر العالم برواية عبقرية ، بجوهرة لا عهد للناس بمثل تألقها . فلنبعد عن ذكره فذارة الاساطير الكاذبة ، ولنسح من غير ان نكف عن محبته والاعجاب به ، — ولكي نتمكن من معرفة حقيقة الاخطاء التي كفرت عنها حياته الاليمة — للتسلل الى أعماق سره ، هذا السر الذي سيجلوه هذا الكتاب .

إذا شئنا إن ندرك كيف كانت حاسية بودليير فلنعائنه منذ ولد حتى أدرك سن البلوغ، ولنبدأ بالتعرف الى الاشخاص الذين ولد منهم .

أنهى فرانسوى بودليير، والد الشاعر، دروسه في مدرسة سنت منهولد الاكليريكية . وما عثم الامر أن عين مدرساً في معهد سنت بارب بباريس، وكان في نحو العشرين من عمره . وبعد قليل استدعاه الدوق ده شوازول براسلان لتأديب اولاده، وخصه بمعاملة حسنة . وكان صديق كوندورسه وكابانيس . وكان يتردد كثيراً على هلفيسوس . فتأدب بالآداب الفلسفية والسياسية الحديثة . ولما اقبلت الثورة الكبرى لقيت مبادئها فيه عوناً مسموع الكلمة . وكان له في الاحزاب الثورية رفاق استعان بهم على مساعدة اصدقائه المعتدلين الذين حافظ على وفائه لهم . وكان أن أدرك البؤس عائلة شوازول براسلان فاقسم بينها وبينه المال القليل الذي كانت تدرّه عليه دروسه في الرسم والتصوير، وعمل ما بوسعه للحيلولة دون مصادرة أملاك هذه العائلة التي أحسنت اليه، كما حاول إنقاذ حياة كوندورسه . وقد حفظت له

عائلة شوازول براسلان هذا الجميل . فلما استتب بها الامر في عهد الديركتوار والقنصلية كافأته بتعيينه امين سر للجنة الادارية ومراقباً لمجلس الشيوخ . وفي العام ١٨٠٣ تزوج فتاة تدعى روزالي جانين ورزق منها ولداً سماه كلود الفونس . وكلود الفونس هذا أصبح فيما بعد قاضياً خطيراً . وتوفي في العام ١٨٦٦ . ويؤثر عنه انه كان يكره أخاه من ابيه شارل بودليير . وبقيت القطيعة بين الاخوين اثنتين وعشرين سنة ، أي من العام ١٨٤٤ حتى وفاة كلود الفونس .

في العام ١٨٠٥ أصبح فرانسوى بودليير رئيس ديوان في مجلس الشيوخ بمعاش قدره عشرة آلاف فرنك في السنة ، أي خمسمائة ليرة ذهبية . وأفردت له دار جميلة في شارع فوجيرار . وفي العام ١٨١٤ توفيت زوجته تاركة له ثروة لا بأس بها ، فطلب إحالته على التقاعد . وكان صديقاً لعائلة بيرينيون يتردد عليها في دارها باوتوي ، ويتردد عليه أفرادها في داره بفوجيرار . وكان ربّ هذه العائلة قد تبنى ابنة يتيمة تدعى كارولين ارشامبودفوي ، ولدت في العام ١٧٩٣ من ضابط متقاعد يدعى شارل دوفاي ومن آنسة تدعى فوايو لاكمب . وكانت هذه الابنة كبيرة الاعجاب بفرانسوى بودليير . فبعد مرور خمس سنوات على وفاة زوجته طلب يدها للزواج ، وكانت في السابعة والعشرين من عمرها

وكان في الثانية والستين . وفي العام ١٨٢١ ولد شارل بودلير من هذا الزواج العجيب . وبديهي انه اذا كانت الرغبة واللياقات ترضى بمثل هذا الزواج فالطبيعة تأباه ولا بدّ لها عاجلاً أو أجلاً أن تظهر عاقبة رفضها . ولهذا التفاوت الكبير في السن بين فرانسوى بودلير وزوجته الثانية أهمية في ايضاح بعض طبائع شارل بودلير الفيزيولوجية . فهو ابن هوى شهواني من رجل لم ينهكه الافراط ، ولكنه أراد بعد حياة بورجوازية معتدلة أن يتعرف الى لذائذ الغرام ... أما أفراد عائلة الام فلم يعرف عنهم شيء . وقد أورد بودلير في مذكراته الخاصة فقرة جاء فيها : « كان اجدادي مجانين او مدخولين وقد ماتوا جميعاً ضحايا أهوائهم الموحشة . » وعبثاً حاول السيد اوجين كريبه أن يتوغل في هذا السبيل فقال إن آل دوفاي تحذروا من عيال انكلونورماندية نبيلة أدركها الانحطاط ، وان والد كارولين كان آخر أفراد هذه العيال . ولكن هذا القول لا يستند الى أيّ دليل . وكل ما يعرف من الامر أن كارولين دوفاي عاشت عيشة امرأة متزنة ، معتدلة ، حتى الثانية والسبعين من عمرها . ولكن الفرق الكبير في السن بينها وبين زوجها كافٍ لملنا على التفكير . ففي العام ١٨٦٤ كتب بودلير الى احد اصدقائه يقول : « أنا مريض بسبب الاخطاء التي ارتكبتها أهلي . وماذا

يرجى من ابن امرأة في السابعة والعشرين ورجل في الثانية
والستين؟ خمس وثلاثون سنة بين امي وأبي، فتأمل! تقول
لي إنك تشتغل بالفيزيولوجيا مع كلود بونار، فاسأل استاذك
ما رأيه بشرة زواج من هذا النوع!

والواقع أن بودليز كان يتذرع بهذه الذريعة متجاهلاً
أنه بذل كل ما في وسعه ليهدم صحته بالبحر والتبغ
والافيون والنساء والسهرة وحياة التمارات. وقد لا يتمكن
العلم ابدأ أن يوضح لماذا يولد ابن بورجوازي مسنّ
وبورجوازية شابة فتولد معه موهبة عظيمة من مواهب الفن،
في حين أن الوفاً من امثال هذا الزواج لا تعقب الا بلهاء
معاتبه. فتكوين رجال الفن لا يزال سرّاً غامضاً في نظر
العلماء. وانه لمن اهواء الطبيعة ان تُسكب اجمل مخيلة
وانبل مقدرة في ابناء الفلاحين او العمال. فهبوط النعمة
عليهم لا يدرك سره انسان.

لم يكده شارل الصغير يعرف والده حتى توفي هذا
الاخير في بيته عام ١٨٢٧. فبقي الولد وحده بين امه
والخادمة العجوز مارييت، هذه المرأة الطيبة التي ظل
يذكرها طوال حياته والتي خصّها في « زهرات شرّ » بالقصيدة
الرقية التي يستهلها بقوله: « الخادمة ذات القلب الكبير... »
وكانت السيدة بودليز، وقد تاملت في الثلاثين من عمرها،

على جانب كبير من الجاذب . وكان شارل يحبها حباً يقرب
 من العبادة ، ويفخر برويته اياها متبرجة تنضح جمالاً وعطراً
 ولديها كثير من الحرائر والحلى والفراء . وبديهي أن يرى
 نفسه ، وقد استيقظت فيه عوامل الحس من غير ان يعلم ،
 سعيداً الى جنب هذه المرأة الشابة العذبة التي استرجعت
 بسرعة مراحها ونشاطها . فقد كانت تحترم السيد بودليو ولا
 تجمل أنها فقدت فيه عوناً لها وعضداً ، ولكنه على كل حال
 كان في الثانية والستين حين مات في التمدد الزوجي .

كان كل شيء جمالاً وغبطة مع هذه الام الشابة الجميلة .
 فكثيراً ما كانا يطوفان باريس في المركبة ويعودان
 كالعاشقين ، فيجدان البيت دافئاً مضاءً ، ومارييت الأمانة
 ساهرة على كل شيء .

ولما جاء فصل الصيف تركت السيدة بودليو مسكنها في
 شارع سنت اندره ديزار واستأجرت داراً صيفية في نويي .
 كان السيد فرانسوى بورشه ، وهو من الشعراء ، أحسن
 من كتب عن بودليو وأجاد وصف ذلك التكوين للحب في
 روحه ، تلك النشئة البريئة لمفهوم الانوثة تحت ستار المحبة
 البنوية . وقد قال بودليو لأمه بعد ثلاثين سنة : « ما اجمل
 ذلك الزمان ! »

ولكن ...

هل كان ذلك الزمان جميلاً في نظر الارملة بودليو؟
 كانت في الواقع سعيدة او مطمئنة على الاقل . كان لديها
 ما يقوم بأودها ، وبيت موفور ، وخادمة ممتازة ، وابن جميل
 واصدقاء ، وعافية . على انها كانت تملك جسداً ، جسد امرأة
 جميلة في الخامسة والثلاثين من عمرها . وهذا الجسد بقي
 سليماً بالرغم من انه لم يعط الا ثمرة واحدة ولم يعرف
 اللذة التي تتطلبها كل امرأة في تلك السن . وهل بالامكان
 ان تبقى امرأة على مثل هذا القسط من الجمال والشباب
 أرملة الى الابد ؟ اوليس طبيعياً ان تفكر في تأمين بيت
 لها ؟ فالاداب البورجوانية لا تنكر هذا الحق ، والاصدقاء
 يريدونه لها .

وفي احد الايام قالت الام الجميلة لولدها الذي لم يحزر
 شيئاً : « قريباً ترى هنا يا صغيري شارل ، رجلاً سيكون لك
 بمثابة أب ثان . فيجب عليك ان تحبه لانه سيحبنى كثيراً
 ولاني احبه انا ايضاً . وسترى اننا سنكون سعداء نحن
 الثلاثة . » ولم تلاحظ اية كارثة احدثتها هذه الكلمات في
 نفس ولدها ، واي حلم جميل هدمته في عينيه ! فلم يبك ولم
 يعترض ، بل اوماً برأسه ايماءة رضى ، وصمت صمتاً غريباً .
 ولم تلاحظ ايضاً اي تبدل طرأ على نظره ، فكارولين لم
 تكن قادرة على قراءة مثل هذا النظر الذي انطبعت به

عيناه الى الابد . فقد كانت عاشقة كما يحق لأشرف امرأة ان تكون . ففي الماضي تمكن سحرها وهي يتيمة فقيرة من إغواء عجوز متصاب ، واليوم يغوي سحرها وهي ارملة موفورة رجلاً في التاسعة والثلاثين من العمر ، جميل الطلعة ، مستقيم الخلق ، سليم القلب .

كان القومندان اوبيك جندياً باسلاً حارب في اسبانيا والنمسا خلال الحملة الفرنسية ، وفي واترلو . وكان يحمل جملة اوسمة في عدادها وسام ضابط في جوقة الشرف ، ويتصف بمزايا البسالة والولاء والخبرة الدبلوماسية . وقد رقي فيما بعد الى رتبة قائد فرقة وعين سفيراً . ولا شك في ان اكبر دليل على كبر قلبه انه تزوج أرملة وتعهد ولداً ليس ولده . وهذه الارملة لم يندفع اليها بعامل اللذة الجنسية فحسب ، بل كان يحترمها ويحبها ويحب ابنها .

تزوجت كارولين القومندان اوبيك بعد مرور عشرين شهراً على ترمليها . وفيما كانت ارملة ذلك العجوز الطيب تنذوق ليلة عرسها الحقيقية ، كان في البيت نفسه ولد جموح يتشجع في عذاب الحب المكدوع ويبكي على سعادته المنطفئة لاعناً امه وهو يشعر بانه يحبها اكثر من ذي قبل ، متوسلاً لها ، متهماً اياها في صمت كأنه الجحيم . وكثيراً ما درس العلماء نفسية ولد تزوجت امه ، ولكن تلك الليلة من تشرين

عام ١٨٢٨ قررت مستقبل بودليز الروحي وكانت حاسمة في توجيه شخصيته . ولا يهمننا أن نعرف أمصيباً كان ام مخطئاً . فقد كان مخطئاً في عرف بعض الناس ، ومصيباً في نظر نفسه . لقد احب من غير ان يقيس حبه ، واذا هو قد انخدع واصبح لا يريد الايمان بامرأة . وانه لطبع غريب ومزاج أخرق ، ولكن الامر كان كذلك . ولو ان كارولين تزوجت اي رجل غير اوبيك لكان شارل ابغضه كما يُبغض اللص وكما يبغض المزاحم .

في اليوم التالي كان شارل قد وضع خطته وهي ان يعلن حرباً لا هوادة فيها على العدو الممقوت حتى الموت ، اي على اوبيك . وليس بوسع امرئ ان يجد له في ذلك عذراً . فقد كان همّ اوبيك وزوجته أن يسعدا شارل ويرييا التربية الصحيحة التي تصوره رجلاً . ولم يستطع اوبيك ان يفهم لماذا يضر له هذا الولد الغريب مثل هذا الشر ، ولماذا ينفر منه ولا يفكر الا في اهانتته وتحقيره .

اما شارل فكان كلما كبر وتكونت في نفسه شاعريته الذاتية تجسم فيه غضب «أوريست» منتقماً لايه من امه ، وجنون «هملت» مفكراً في الوسيلة التي تمكنه من قتل المختلس الذي احتل سرير امه وسرق تاج ابيه . ولم يكن في السيدة اوبيك المسكينة شيء مما كان في كليمنستر أو في الملكة الشكسبيرية ، كما انه لم يكن في اوبيك شيء مما كان في اجيست أو في الطاغية الدانماركي ، سوى ان بودليو لم يكن يكلف نفسه الاصفاء الى ضميره ليسمع الصوت العادل يقول له انه يبالغ كثيراً ، وانه يشوّه الحق ، وانه يكذب ، وان الغضب لا يسدي نصيحة ، وانه يسم حياة زوجين لم

يرتكبا ذنباً، ويعكر طمأنينته، ويجر على نفسه العذاب .
 بل كان يذهب الى انه لم يكن يحق لأمه، وقد انجبت ولداً
 مثله، ان تتزوج مرة ثانية . ذلك ان كبرياء كانت تصور له
 انه ما جاء الى العالم إلا برسوم إلهي، وانه كان يجب على
 امه الشابة ان لا تفكر في سوى راحته وسعادته . وككل
 من يجب ذاته كان يرى من العدل ان يترك هذه الام وأن
 ينكرها حالما يقع على امرأة او على عشيقة . وسرعان ما
 تحولت محبة الذات المكبوتة الى صرخة تطلق اللعنة على كل
 امرأة تلد شاعراً ولا تشعر بانها ولدت مسيحاً . ولم تكن
 السيدة اوبيك المسكينة بالمرأة التي تستحق اللعنة، سوى ان
 الغيرة التي كانت تتأكل نفس ولدها كما تتأكل نفس العاشق
 سمّت حياتها الى الابد .

ولكننا لم نصل بعد الى الكارثة، فشارل لا يزال في
 الآونة الحاضرة غلاماً موفوراً يعيش هادئاً في كنف أمه .
 اوبيك في افريقيا يحارب في جيش بورمون الذي احتلّ
 ألبه وأكسب سلطان كارلوس العاشر مجداً جديداً . وبديهي
 أن تصرف السيدة اوبيك شطراً كبيراً من وقتها في التفكير
 بذلك الذي يخاطر بحياته وتجنه حباً عظيماً، فيشعر شارل
 في أعماق نفسه بأن «مزاحمه» الباهر اختلس كل ما بقي في
 قلب أمه .

ويعود اوبيك فيرقى الى رتبة ليوتنان كولونيل ويرسل الى ليون ، فيصحب معه عائلته لأن الهواء الأصفر كان يتفشى في باريس . وفي ليون يوضع شارل في مدرسة داخلية . ولماذا في مدرسة داخلية ؟ لو ان الامر في يد كارولين لآثرت غير ذلك ، ولكن لاوبيك رأيه في النظام وليس لزوجه الا ان تطيع . وبديهي أن يحمل شارل هذه البادرة على محمل سوء فيردّها الى جمود أمه وشراسة عمه . ولكنه يخضع للامر ويسلك في المدرسة جادة الاجتهاد ، ويبدد منه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، ذكاء عجيب يُشيع الغبطة في اساتذته .

وتنتطق في العام ١٨٣٤ حركة العصيان في ليون فتقمع بعنف . ويشترك اوبيك في قمعها فيرقى الى رتبة كولونيل . وفي العام ١٨٣٦ يعين في أركان حرب باريس فينقل اليها عائلته ويذهب بشارل الى معهد « لوي لوكران » ، ويقدمه الى الرئيس قائلاً : « أهبك تلميذاً يشرف معهدك ! » وفي الواقع أن اوبيك كان يعتقد كل الاعتقاد بأن شارل على جانب كبير من الذكاء وإن يكن غريب الاطوار .

وفي معهد « لوي لوكران » يبدي شارل اجتهداً كبيراً وينال في المباراة العامة سنة ١٨٣٧ جائزة في الشعر اللاتيني يغتبط بها قلب أمه وعمه . على ان نظام المدرسة الصارم

كان يرهقه . وكان يشعر في نفسه بميل شديد الى الشعر لا يدري أحد من أين جاء . وقد انضجه انطوائه على حقه الغنيف ، فأخذ يتمرّد على النظام ، وبلغ بتمرّده عليه حدّاً حمل المعهد على طرده في العام ١٨٣٩ مما أثار حفيظة اوبيك . وما عم الامر ان احرز شارل شهادة البكالوريا . وقد لمح فيما بعد الى أن الفضل في فوزه يرجع الى « اكتسابه عطف زوجة أحد الفاحصين . واكبر الظن أن هذا الادعاء لا يخرج عن نطاق تخيلاته الكثيرة ، ولا يمكننا ان نستنتج منه اي شيء عن منشأ احساسه الشهواني . ومهما يكن فلا مندوحة عن القول بان الاحساس الجنسي استيقظ فيه وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره .

لما نال شارل شهادة البكالوريا خيل الى عمّه انه سيتمكن من الاخذ بيده ، وفتح في الامر قائلاً له انه سيضع تحت تصرفه ما له من النفوذ ، وانه لن يعتم الامر حتى ينخرط في السلك الديبالماسي . فرفض شارل قبول اية خدمة من عمه قائلاً له انه يريد ان يكتب ، ان يكون مؤلفاً لا اكثر ولا اقل . وبدل ان يرى القائد امامه شاباً لين العريكة وافر التهذيب ، رأى رجلاً يحجب وراء تهذيبه حقداً لا طعم له ولا لون . فتأثر في اعماق نفسه من غير ان يدرك الاسباب التي تحمل هذا الخلق الغريب على الوقوف منه

مثل هذا الموقف المرهق . ولكن اوبيك تذرع بالصبر قائلاً
 في نفسه ان ابن زوجته سيعدل ولا شك في المستقبل ويصلح
 نفسه . ومما زاد في طمأنينته ان شارل لم يبلغ بعد السن
 التي تجيز له التصرف بثروته فيتركب ما يخشى عليه من
 الحق . ورأى ان افضل وسيلة هي ان يترك له الجبل
 على الغارب مدة من الزمن فيسرح ويمرح على هوى نفسه
 وينال من بسطة الحياة القسط الوافر .

ولكي يمكنه عمه وامه من كل هذا فتحا له اعتداداً عند
 الحياط والاسكاف وصانع القبعات ، واعطياه دراهم اسبوعية
 او شهرية . وكان شارل جميلاً يحب العطور والثياب الجميلة ،
 فاخذ يعاشر طلاب الحي اللاتيني . وسرعان ما عرفت مقاهي
 الضقة اليسرى زبوناً جديداً ما عثم ان ذاع صيته لبجوحته
 ورفاهيته وسهولة خروج البذرة الذهبية من يده . ولم يكن
 في هذا ما يدعو الى الاعتراض . ولكن هناك « مسألة
 النساء » ، فالى اين ذهب المرفق شارل بودليير ؟

كان بإمكانه ان يقع على حسان متأنقات او على امرأة
 متزوجة يستهويها شعره وما في عينيه السوداوين ووجهه
 الشاحب من اسباب الاغواء . ولكنه آثر ان ينحدر الى
 اسفل دركات اللذة ، الى ابشع النساء واقدرنهن ، كأنه اراد
 ان ينتقم لعاطفته النسائية الاولى التي احسها الى جانب

الام التي خانته بحسب ظنه ، فلم يشأ ان يعرف من المرأة الا ناحيتها القذرة ليمحو من مخيلته اية صورة نقية لها . وقد قيل ايضاً ان بودليو ما اختار ابشع حطم القاذورات والشوارع الا نزولاً على اوامر طبيعته التي كانت تميل الى اثاره الفضائح واساعة الدهشة . ولكن لا مندوحة لنا عن الوصول الى استنتاج اخير قد يكون اصح الاستنتاجات جميعا . فشارل بودليو المتحدر من اب عجوز لم يكن ذا مزاج صحيح ، بل كان بارد الاعصاب يستطيع ان يعيش عيشة طهر مستديم . وكان يصور له انه من المحم عليه ان يعشق ولا يشعر لهذا العشق باية حاجة جسدية . وبما انه لم يكن واثقاً من التصرف كما يشاء بحاسته الجنسية فقد كان متهيّباً خجولاً أشد ما يخشاه شيوع فشله وعجزه . ومعلوم ان فكرة الحب وفكرة اللذة الجسدية تفترقان عند الذين يشقون ويتألمون حين يرون حاستهم الجنسية لا تلبى نداء ارادتهم .

وبديهي أن مثل هذا الحُجَل يمكن أن يزول في احضان النساء اللواتي يحترفن بيع اللذة ولا يبالين بشيء . فما دمن تناولن الثمن فليس هنّ إلا ان يستسلمن ويسكتن . واذا مني الزائر بفشل جنسي فلا يكلفن انفسهن الهزء به . وهذه الصيانة لكرامة الرجل ، هذا الوثوق من السماح للنفس بكل

ما ترغب فيه ، كافٍ لبث الطمأنينة في نفس مخلوق لا يصدر خجله الا عن برودة اعصابه .

ولنفذ الى اعماق الجرح فنرى في القرارة الامل المخجل في عمليات الحب التي تستطيع قهر خمود المراكز العصبية الخاصة ، الامل في امور لا يجرأ على طلبها من نساء يحفظن بعض الحياء حتى في اشد اوقات اللذة ، في امور قد يرفض القيام بها وقد يجهلنها ايضاً . وهذه العمليات التي من شأنها ان تثير الشهوة المكبوتة ، كلما مضى بها المرء تطلب المزيد منها ، مثله في ذلك مثل آخذ المورفين او الكوكايين يحتاج دائماً الى مضاعفة الجرعات ليستمر مفعولها .

وصل بودليير الى هذه الحالة وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره . كان مريضاً وتعباً وعاجزاً ، يحتاج الى طبيب وصديق يتمتع بكل ثقته . سوى انه لم يستطع الالتجاء الى احد لان صديقه الوحيد كان كبيراًؤه ، هذه الكبرياء التي كانت تمسكه عن ان يكشف سره لمخلوق . فانطلق يعبّ من شبق القاذورات ، وينظر الى هذه الاخيرة بعين نافذة وسخرية موجعة فيخرج لنا ذلك الشعر الرائع الذي لم يعدله شعر من نوعه .

ولكم في الحياة قصاص . فما كاد بودليير يبلغ العشرين حتى شعر باعراض السفلس . وقد ثبت انه ابه لهذا المرض

وبقي طول حياته يداوي نفسه منه . وفي نهاية الامر أورثه هذا المرض الشلل الذي قتله .

ورب متسائل اية امرأة جاءت بهذه الهدية التعسة ؟ يقال انها سارة اليهودية التي لم يمر بها مرور العابر ، وكان اصدقاؤه يخشون عليه منها . ويقال ايضاً انها فتاة من الحي اللاتيني صوّرها المصور ديروى وتغنى بها تيودورده بانفيل في قصيدته « الى مغنية صغيرة في الشوارع » . وقد سماها بودليز في احدى قصائده « زهرات شر » باسم « الشحاذة البرصاء » . ويقول بودليز في قصيدته هذه ان تلك الفتاة المجهولة كانت ذات جسد مريض مزروع ببقع برصاء ، وانها كانت تحتذي حذاء خشبياً وتتردي خرقة قصيرة .

وفي هذا ما يكفي للتدليل على كيفية دخول بودليز فيما كان يسميه الحب ، وعلى ان هذا الفتى الثقيف الذي كانت العبقرية تنمو فيه فموها السريع ، ولم يكن يستهويه الا كل نادر وكل خارق وعجيب ، لم يسلك الا مسلك صغار البورجوازيين الشوانيين الحمقى . ولكن بالامكان انقاذ هذا المتعجرف ، هذا المتشائم ، لو ان امرأة حقيقية احبته باخلاص ودفأت قلبه بجنانها العذب وبددت آلامه . وسنرى فيما بعد ان هذه المرأة مرت بحياته ، ولكنه لم يعرفها ولم تلح عليه .

كان بودلير قد وصل الى هنا بمغامراته القذرة الأولى حين حصل حادث عائلي بدّل مجرى حياته .

كان حقد شارل على عمه يزداد مع الايام . وكثيراً ما كان هذا الحقد ينفجر عن حوادث مكدره ، الى ان حصل أخيراً حادث على جانب من الخطورة رواه مكسيم دي كان في مذكراته . ولكن مكسيم دي كان تعود الكذب وتشويه الحقائق ، فلا يستطيع الاستناد اليه . ويلخص الحادث في أن الجنرال اوبيك وجهه في أثناء العشاء ملاحظة صارمة الى شارل . سوى أن الأمر الذي لم يؤكد هو ان شارل لم يتحمل ملاحظة عمه فهجم عليه ليخنقه ، فصفعه اوبيك صفة أوقعته في نوبة عصبية شديدة . ومهما يكن ، فالأمر الأكبر هو انه عقد مجلس عائلي تقرر خلاله ارسال شارل الى مكان بعيد لاقصائه عن موبقاته وعن عشرته الرديئة . وكان ما يزال لاهله حقوق عليه اذ لم يكن بلغ السن القانونية . وقد خيّل اليهم أن سفرة طويلة في البحر تفيد جسدًا وعقليًا . فلم يمانع شارل ، وركب من مرفأ بوردو « باخرة بحار الجنوب » المسافرة الى كلكتوتا بقيادة

القبطان سور .

ولما عاد بودليز من هذه السفرة قصّ على رفاقه في المقاهي أشياء غريبة عنها ، منها ان البحارة عاملوه معاملة رديئة صارمة ، وان منهم من كان يعرض عليه عروضاً كثيراً ما كانت ترغمه على الدفاع عن نفسه . وقد لفق بودليز حكايات كثيرة من هذا النوع ليحمل الناس على الاعتقاد بان عمه اراد ان يوقع به شراً . والواقع ان عائلته دفعت مبلغاً كبيراً لكي يعامل معاملة حسنة . ولدينا نسخة كاملة عن التقرير الذي ارسله القبطان سور الى اوبيك ، والقبطان سور مثال الصدق والاستقامة . ولكن بودليز كان عازماً على المضي في احقاده الى النهاية . فنزل في جزيرة موريس وواصل الى جزيرة بوربون ، ولكنه رفض النزول الى اليابسة وأصرّ على العودة . فلم يمانعه القبطان سور ، وعهد به مع ما بقي من المبلغ الذي تسلمه من اوبيك الى قبطان الباخرة «السيد» العائدة الى بوردو . وقد استغرقت رحلته هذه تسعة أشهر .

وكثيراً ما بحث الكتاب تأثير هذه السفرة في ادبه . وفي الحقيقة ان في جملة من قصائد « زهرات شر » حيناً مطبوعاً بطابع شرقي قد يكون نتيجة تأملات بودليز الكئيبة حين كان يصغي بغرق الى اصوات العبقرية الناشئة

في نفسه تتصاعد مع هدير الامواج في تلك البحار النائية .
 اما ما كتبه مخيلة بودليو عن كلكوتا التي لم يذهب اليها
 قط ، وما اختلقه مكسيم دي كان بقوله مثلاً ان بودليو
 اضطر ليعيش الى بيع مواش من الجيش الانكليزي ، فلا ينبغي
 الاخذ به . فاكاذيب دي كان وتخيلات بودليو نفسه اضلت
 مؤرخي هذا الاخير لانها حاكت خيوطاً كثيفة حول حقيقة
 الشاعر .

في شهر نيسان ١٨٤١ ، أي بعد مرور شهرين على عودته ،
 بلغ بودليو السن القانونية فدفع اليه الجنرال اوبيك ما يعود
 اليه من الارث وهو خمسة وسبعون الف فرنك ، أي ثلاثة
 آلاف وسبعمئة وخمسون ليرة ذهبية . وبعد شهرين ترك بودليو
 البيت غير مكلف نفسه تهيئة أمه لتلقي الصدمة . الا انه
 أبقى لها ورقة جافة يقول فيها إنه ذاهب تلبيةً لنداء
 القلم . فالكبرياء والحقد خنقا كل عاطفة كريمة في صدره .
 فقد بقي حتى الدقيقة الاخيرة يقف موقف الجاحد الرديء
 من أمٍّ ممتازة ورجل كريم لم يقدر على فهم تلك المأساة
 التي شاء هذا المعذب نفسه ان يمثلها منذ السابعة من عمره .
 ذهب بودليو نحو المجد ، فلم يدركه الا بعد موته .
 وظل طول حياته معذباً . ولم يكن كتب الا بضع قصائد
 متبانية القيمة ، ولكنه كان واثقاً من أنه سيضع روائع ،

وان اسمه سيخلد الى الابد . فهذا الرجل الذي كان يشك في كل شيء لم يشك لحظة في تفوقه الادبي . وكان متعطشاً الى العمل ويعتقد انه اذا لم يكن بدر منه حتى ذلك الحين إلا معاشره الخلائق المنحطة فالذنب في ذلك يقع على اهله . أما وقد اصبح حراً فسيضرب المثل بانتاجه ودأبه . وقد قال لأمه في الرسالة الجافة التي ابقاها لها انه سيضطر على الغالب الكثير ان يعيش عيشة صارمة .

استأجر بودليز مسكناً صغيراً في جزيرة سان لوي ، ولكنه لم ينس أن يتدبر الحياط والاسكاف وصانع القبة . وان يكن صحّ عزمه على سلوك جادة الاقتصاد فهو لم ينس انه من المرفهين ، ومن كان من المرفهين لا ينبغي له ان يشتغل في وقت معين كالموظفين والمستخدمين . ومضت الايام وبودليز لا يعمل شيئاً . وكان يؤجل دائماً العمل الحطير الذي يحلم به ، وبقي يؤجله الى ان استنفد ثروته واضطر الى الاختيار بين العمل المجدي والجوع . ولم يكن بودليز كسولاً ، ولكنه كان مصاباً بالرغبة وبالعجز في وقت واحد على غرار قابليته الجنسية المتهاجة والمشولة معاً .

ما كاد بودليز يستقر في مسكنه الجديد حتى عاد الى النساء الساقطات . ففي مساء يوم بعد ان تناول العشاء مع صديقيه اورلياك وجيرار ده نوفال ، ترك المطعم وسلك طريق

البانتيون . وبعد هنيهة وقف أمام مسرح صغير كان يمثل فيه فصل تافه . ولكن المثقف بودلير كثيراً ما كان يقبل على التوافه ، فدخل . وما كاد يسمع بعض الحوار حتى ظهرت على المسرح خادمة فقالت ثلاث كلمات وانصرفت .

لم يكد بودلير يقع نظره على هذه المثلة حتى شعر برعشة لم يعرف سبباً لها ، فبحث عن اسمها في البرنامج فإذا هي تدعى الانسة جان دوفال ، ولكن ما الفائدة من اسمها ؟ وكان بوده ان يذهب اليها . على أنه آثر ان يتصرف تصرف الفتيان الوافري التهذيب . فابتاع ضمة أزهار وارسلها اليها مرفقة ببطاقة يعرب فيها عن أمله ان تستقبله في اليوم التالي . ومن هي جان دوفال ؟ لا احد يعلم . يقال انها ولدت في سان دومنغ ، فمن جاء بها الى باريس ؟ وماذا كانت من أمرها قبل أن احترفت تمثيل ادوار الخادومات في ذلك المسرح الحقيير بشارع البانتيون ؟ لا أحد يعلم . اما عن شكلها الخارجي فلدينا جملة معلومات وصلت الينا من شهود عيان ، قال بانفيل : « هي فتاة زنجية شاهقة الطول ، جميلة القوام ، رائعة الطلعة ، في مشيتها ظرف وحشي يتقاسمه شيطان من السماء والحيوان . » ولكن بانفيل يحمل كل ماتقع عليه عيناه ، ومن خصائص عبقريته انه لم يستطع أن يرى شيئاً أو مخلوقاً على حقيقته .

واليكم ما كتبه برارون : « أذكر ان جاث دوفال كانت زنجية مشرقة ، ولم تكن على جانب كبير من الجمال . شعر أسود كثيف ، وصدر مسطح ، وقامة طويلة ، ومشية بشعة . » وما كتبه جول بويسون : « كان خداهما متهدلين ، ولونهما أصفر باهتاً ، وشفتاهما حمراوين ، وشعرها غزيراً متموجاً . »

وهناك رسوم بالريشة لبودليير نفسه ، فقد كان يحسن الرسم وقد ورثه عن امه كارولين ووالده فرانسوى بودليير . على ان هذه الرسوم اذا نمت على شيء فعلى شهوانية بهيمية : عينان سوداوان كبيرتان ، شعر حالك متمرد ، انف مستقيم ، شفتان سميكتان ، ثديان شديدان متباعدان على صدر هزيل ، ردفان سميان على قامة رقيقة لينة . جسد فاسقة لا تعرف الشبع ، يعلوه وجه خبيث محتمل لا سمة عليه للقلب او للعقل .

هذه هي المرأة التي استهوت الشاعر المثقف شارل بودليير ! لاشك في ان جان دوفال استغربت كثيراً تلك الازهار وتلك البطاقة المشبعة بعاطفة الاحترام . فمهنها في ذلك المسرح الحقيير لم تعودها مثل هذا التكريم . وازدادت دهشتها حين جاءها ذلك السيد في اليوم التالي وراح يكشفها باعجابه . على انها راحت تتفحصه بعين فتاة خبيوة ، فتبين لها من رساقته وشحوبه وانافته انه ابن عائلة ، وقالت

في نفسها : ربما كان غنيمة ... ومع هذا لم تستسلم في الحال ، بل تظاهرت بانها لم تكثرت له كثيراً . والغريب في الامر ان بودليو ، وكان اصبح خبيراً بامثال هذه المساومة القذرة ، لم يفهم شيئاً منها . وفي نهاية الامر مضت به جان الى مسكنها في شارع سان جورج .

لا نزاع في ان بودليو تعلق جان دوفال لان مهارة هذه المرأة تمكنت ، للمرة الاولى ولا شك ، من التغلب على ضعفه الجنسي ووفرت له لذة كاملة ، ساحقة ، ناهكة . ففي جانب دوفال وجد بودليو المرأة القادرة على ان تنتزع من لجه واعراقه «لذات أحد من الثلج والحديد» ، لذات كثيراً ما حلم بها من غير ان يأمل في تذوقها . ووجد فيها على الخصوص محاققة على جانب من الخبرة تستطيع ان تثير كوامن لذاته او ان تستفزها . فلا شك ان في حادث دوفال وبودليو — هذا العاجز المسلس — شيئاً من حادث الشابة دي باري ولويس الخامس عشر الذي كان مصاباً بالسفلس . على ان دي باري رأت ان تجذب زبونها الملكي بمركات كلها عفرتة وخفة ، خلافاً لجان دوفال ، فقد احست ان عشيقها الصامت المترفع يجب الصمت والامثال ، فغزمت على ان تكون صامتة ممتثلة . وكان ذلك لحسن حظها لانها كانت من جنس العبيد ، لا تتحلى بأي شيء من العلم او من الذكاء ،

وكل ما يهمها ان تنال حاجتها من الدراهم .
 ورب متسائل : أحقيقة ان جان دوفال وقعت ، بعد
 علايقها القذرة ، على « المنفق » الرصين في شخص هذا الابله
 العابس ؟

بدون ريب . وفي الحال اراد بودليز ان تترك المسرح
 لتكون له بكليتها . وبديهي ان تركها المسرح لم يكن
 خسارة كبيرة عليها اذ ماذا كانت تنال منه واي مستقبل
 باهر كان ينتظرها عليه ؟ سوى ان بودليز لم يلح عليها في
 ان تساكبه ولم تلح عليه في ذلك هي ايضاً . وكل ما طلبه
 ان يجيئها في الليل . وانتقل من جديد الى جزيرة سان لوي
 فاستأجر مسكناً صغيراً في فندق بيمودان الفخم بشارع
 دالنجو ، واثان جان مسكناً آخر في شارع مجاور ، شارع
 المرأة العديمة الرأس .

وراح بودليز ينفق بدون حساب ، ويسلك حياته كشاعر
 وكمترف بين ليلتين ناهكتين . وبما ان دخله لم يكن يكفيه
 فقد لجأ الى ما لا بد من اللجوء اليه ، الى الدين . وكان
 ثمة مراب يدعى ارونديل فأخذ الشاعر يستدين منه ويوقع
 له سندات ، غير آبه لما ينتظره ، غير مدرك ان هذه السندات
 ستورثه ندماً شديداً .

وكان ان اطمأنت جان دوفال الى مستقبلها ، فلم تبق

تلك المرأة الصامته ، بل تحولت الى ثرثرة لا تمثل دورها كـ « معبودة عجيبة ، سمراء كالليالي » — على حد قول بودلير في احدى قصائده — الا في ساعات الشبق حين تستأنف وهي عارية عمل الحزي والنهك الجسدي الذي يزيد تمسك عشيقها بها . وكان ان تملكت السويداء هذا الاخير فاستسلم الى الشرب . وكان يحب النبيذ الابيض فاضاف اليه كثيراً من الكحول والقهوة . ولم يكفه تدخين التبغ فاضاف اليه الافيون ثم الحشيش . واشترك في نادي الحشاشين بفندق بيمودان غير مدرك ان الذين يشاطروهم ذلك المخدر الاخضر هم أشد بنية منه .

وكان الداء الزهري يعمل عمله الفيزيولوجي الخفي فيهدم صحته بسرعة ...

وكانت امه تجتمع به احياناً . فكارولين اوبيك المسكينة كانت تواصل الصعود الى جلجلتها عالمة حق العلم ان ابنها الهائل ، ابنها الحبيب ، اصبح لا يستطيع العودة اليها ، الى زوجها . ولكنها لم تكن تقوى على الفراق . فكانت تضرب له مواعيد تارة في الحداثق العامة وطوراً في المتاحف اذ لم يكن بالامكان ان تجتمع به في بيته خشية ان تجدد عنده الزنجية . ولم يكن بودلير ليجعل انه ليس من اللياقة ولا من الحشمة وضع سيدة محترمة كالجنرالة اوبيك امام

فتاة لجان دوفال وجهاً لوجه في البيت الذي يقيم به ابن
الاول وعشيق الاخيرة .

كانت احاديث الام والابن عذبة وموجعة في آنٍ واحد ،
وكانا يفترقان كثيرين . سوى ان هذه الاجتماعات كثيراً ما
كانت تذكر بودليو بحياة أكرم وأشرف . فلا يوشك ، حين
يعود الى مأواه ، ان يستبشع المرأة التي حطت سمعته
وكرامته وان يستنكرها حتى تصمت وتتعزّى ...

وفي اثناء ذلك كان بعض الشعر يولد بقليل او بكثير
من الجهد ، فلا يفتأ الشاعر يُعمل فيه يد الصانع ، ينقحه
ويهدبه بتدقيق من أوتي من العبقرية اكثر بكثير مما أوتي
من الموهبة . وكانت قوّة التجلي العجيبة تظهر في ذلك
الشعر الى جنب قوّة التصور ، فيبدو معها صاحبه في الحياة
مختلاً وفي الادب شاعراً نسيجاً وحده ، كبير التفات ،
تارةً أخرق غيباً ، وطوراً استاذاً لا يجارى :

« انت يا من دخلت الى قلبي الشاكي كقطعة خنجر ،

انت يا من جئت قوّةً كقطيع من الشياطين ، مجنونة

متبرجة ،

لتجعلني سريوك وملكك في روحي المتضع ،

ايتها المرذولة التي اتمسك بها

كما يتمسك السكير بزجاجة الخمر والديدان بالحيقة ،

ملعونة، ملعونة انت !

هذا الذي كان يكتبه بودليو وهو خارج من ذراعي جان، ولكنه كان يحبها. كان يحبها على طريقته فيما هو يحتقرها ويحتقر نفسه. سوى ان حناناً عجيباً كان يستفيق فيه احياناً فتتجلى جان دوفال وتصبح «زهرة الشر» موضوع شعر جميل رائع كقصيدة «الشعر»، جزءة الزنجية البهيمية :
«ايتها الحصل ! ايها العطر المثقل بالكسل والفتور !

ان روحي ليسبح على عطرك يا حبيبي،

كما تسبح ارواح الآخرين على الموسيقى...»

وفي جملة الروائع التي اوحتها جان الى بودليو قصائد «العطر الغريب» و «الافعى التي ترقص» و «شبح» و «الشرفة» وسواها. وما «ازهار الشر» سوى قصة واعتراف كتبها شعراً. ولقد أحسن المؤرخون بالتسلل الى اعماق الآلام والبؤوس التي قاساها الشاعر، فلولا ذلك لما وضعت حقيقة الكتاب. فهذا الشعر الذي بلغ به بودليو حد الكمال الفني وهو بعد في الثالثة والعشرين من سنيه، هذا الشعر الذي مضى على الكثيرين من العشاق اكثر من نصف قرن وهم يتغنون به بين ضمتين، ولد من غرام شاب نابغ ومريض لا يجمل انه يغوص في حمأة الدنس فيندم، ولكنه لا يستطيع امتلاك نفسه.

وإذا شئنا ان ندرك اي بون شاسع بين الواقع والتصور
فلنحاول ان نتخيل الزنجية الشهوانية الكسول تصغي الى
هذه الابيات يلقيها على مسمعها رجلها وهو ليس بالاحمق
في كل ساعة :

« ان العطر ليحوِّم على جسدك
كأنه يحوِّم حول مبخرة ،
فانت تفتنين كالمساء
ايتها الجنية المظلمة الحارة .

آه ! إن أقوى شراب
لا يوازي كسلك ،
وانك لتجيدين الملاطفة ،
التي تحيي الاموات !..

انك تمزقيني ، يا سمرائي ،
بضحكة ساخرة ...

وانني لاضع غبطتي الكبرى
وعبقريتي ومصيري
تحت حذائك الحريرين ،

تحت قدميك الحريتين الفاتنتين .

وأضع تحتها كذلك روحي التي شفيتها ،
 أنت أيها النور واللون ،
 يا انفجار الحرارة
 في صقيعي الاسود !

لا ، لم تُشفَ روحه فهي قد مُسمّت ، ولكنه يجب هذا
 السم . ومهما يكن فالشعر مدين لمخلوقة بأئسة خسيصة بمجموعة
 من القصائد ستبقى ما بقيت اللغة الفرنسية . والعجيب
 أن جان دو فال لم تكن تفهم شيئاً من هذا الشعر ، فقد
 أعطت رجلها الوحل - على حدّ قوله - فحوّله الى ذهب .

فما كان بودلير يواصل حياة الشبق ، وحياة البطالة في الشوارع والمقاهي ، والثرثرات الجمالية ، كانت القصائد تتكون على مهل فلا يشعر بها احد او يكاد لا يشعر بها احد ، ولا يمكن ان تدرك بدرجة . وكان المال ينفد بسرعة ، بل كان نفاده من السرعة بحيث ان بودلير تلقى صباح يوم نأى اوقعه من الغضب في أزمة حادة . ومفاد هذا النبأ ان عمه وأمه رفعوا امام المحاكم دعوى يطلبان فيها اقامة الحجر عليه !

لأن يخطر مثل هذا الفكر لاوبيك ، اوبيك العدو الاثيم ، فالامر ممكن الاحتمال . اما ان يخطر لكارولين فانها خيانة مخجلة ترتكبها بحق ابنها بعد الخيانات الكثيرة التي سبقتها ! والواقع ان السيد والسيدة اوبيك كانا يعتقدان ان شارل بذّر منذ ذهابه اربعين الف فرنك (ما يقرب من الفى ليرة ذهبية) ، وانه لم يتعاط اي عمل ، ولا يبدو انه سيتعاطى عملاً ما ، بل يهلك صحته وشرفه وماله مع امرأة سافلة . فمن واجبه ان يؤديه اليه آخر خدمة يستطيعانها بانقاذها اياه من الهوة التي يتمرغ فيها ، او بصيانتها على الاقل ما بقي من الارث الذي تركه فرانسوى بودلير .

وفي ايلول ١٨٤٤ عينت المحكمة السيد انسيل ، محافظ
نوبي ومن اقرباء بودليو ، حارساً قضائياً . وكانت الثروة
الباقية خمسة وثلاثين الف فرنك تقرر ان يتقاضى شارل
ريعها لا اكثر ولا اقل ، وهو مئتا فرنك في الشهر ، اي
عشر ليرات ذهبية . وقد صرف الشاعر حياته في مخصصة
السيد انسيل وفي شتمه ، لان السيد انسيل كان مثال الحراس
القضائيين لا يلين لاي توسل ، ويصم اذنيه عن طلب اي
مبلغ اضافي .

واذ لم يكن بود بودليو ان يعدل عن جان وعن حياة
البذخ التي تعودها فقد اخذ يستدين من جديد ليحفظ
بعشيقته ومحبه في الكسل . راح يستدين من رفاقه ومن
مصرف الرهونات . ولجأ الى « جمعية رجال الادب » يطلب
منها سلفات على اشغال لم يسلمها قط . ثم لجأ الى امه
يطلب منها دراهم . وبقي يرهقها بطلباته الى آخر نسمة من
حياتها . وكان حلالاً للزنجية ان تأكل بدون خجل من رزق
والدة عشيقها .

ولكن هذا كله لم يكن كافياً ، فاتفق بودليو وجان
بوقاحة لا وقاحة بعدها على تمثيل مهزلة مؤسفة . فكاشف
بعض رفاقه برغبته في الانتحار . ولما شاع النبأ بعض الشيوخ
ارسل الى احد اصدقائه وصية له واوصاه بعشيقته . وفي اليوم

التالي ، فيما هو يتناول قدحاً مع جان في خماره بشارع
ريشيليو ، طعن صدره بمخنجر طعنة خفيفة وتظاهر بالانغماء .
وفي الحال حضر رجال الشرطة فحملوه الى المفوضية .
وبعد ان اطلع المفوض عائلة «القائض» على امره ارسله محملاً
الى منزل الجنرال اوبيك .

وبدئي ان يوقع هذا المشهد السيدة اوبيك في حزب
يقرب من اليأس ، فقد كانت تحب ولدها بالرغم من فجوره
حبا يقرب من العبادة . وفيما هي تبكي وتلتحب ، جاء الجنرال
فتفطر قلبه . وجيء بالطبيب فأكد ان الجرح لا يدعو الى
اي قلق . وانصرف اوبيك وزوجته الى تدليل شارل
والترفيه عن نفسه ، وأكدوا له انها سيدفعان ديونه ، وألحاً
عليه في البقاء .

وفي أثناء الاضطراب العائلي هذا كانت الزنجية تنتظر
مطمئنة في بيتها . وقد اخبر الاديب العالم لوي مينار أنه
رأى جان سكرى بالتبغ تنتظر نتيجة الحيلة التي دبرتها مع
عشيقها . وحالما شفي هذا الاخير من جرحه الطفيف واطمان
الى أن أمه وعمه اللذين خدعها قد دفعا ديونه ، ترك البيت
للمرة الثانية . ويقول لوي مينار ان بودليير لقيه مرة في
الطريق فقال له : « لقد تركت عائلتني من جديد ، يا صاحبي .
ففي بيت أمي لا يشربون الا نبيذ بوردو ، وانا لا استطيع

الاستغناء عن نبيذ بورغونيا . » وأكبر الظن أن هذه المعثرة هي أشنع جميع المعائر التي ارتكبتها بودليو .
على أن بودليو لم يكن أشدّ منها وفاءً . فقد كانت تحونه بكل سهولة . وفي جملة الذين خانتهم معهم أحد حلاقي الحيّ . وهذه الخيانة أثارت سخط بودليو الذي كان يخونها هو بدوره مع النساء الخوارق ، اذ يظهر أنه كان يؤخذ بالقزمات والعلاقات من النساء ، وكثيراً ما كان يلمحّ الى علاقته بهنّ بأساليب فجّة وعبارات فاحشة . ولا يستبعد ان يكون استوحى قصيدته الرائعة « العلاقة » من حادثة له مع إحدى الخوارق . ولا يستبعد كذلك أن يكون الفضول قد دفع بودليو نحو السادية . فالمركينز ده ساد لم يكن سوى مجنون مجرم ، والذين اتبعوا بدعته كانوا خلعاء وبلهاء مثله . وبديهيّ ان يسعى مغرم ضليل عاجز او نصف عاجز كبودليو لان يقع في نظريات هذا المركيز على امكانيات جديدة في اللذة ، ولكن بقية من الاستقامة والشرف والخوف ايضاً حالت بينه وبين تحقيق شيء من تلك الامكانيات .

ولسنا نعرف شيئاً عن المخلوقات اللواتي كانت يواصل تجاربه معهنّ إلا أنهم ينتسبون الى البؤر والقاذورات . وانه لمن المؤسفات حقاً ان نرى بودليو المتوقف المرفه حبيب

العطور والثياب المهففة لا يحجم عن وضع انفه في الحرق
 المرقعة والجلود القذرة . فمن تراها تكون تلك المجهولة صاحبة
 الاحرف ج . ج . ف التي قدم اليها بودليو « الفراديس
 المصطنعة » وواحدة من اجمل قصائده في « ازهار الشر » ؟
 وفي هذا الكتاب قصيدة تحت عنوان « سيزينا » . وكل ما
 تعرفه عن سيزينا هذه انها امرأة ايطالية تدعى السيدة نيري
 وهي من صديقات السيدة ساباتييه التي سنتكلم عنها طويلاً .
 وفي الكتاب ايضاً قصيدة صغيرة بعنوان « الحريف » يخاطب
 فيها الشاعر امرأة باسم مرغريت . فمن تراها تكون مرغريت
 هذه؟ يبدو انها لم تكن من رعاع الناس ، لان الشاعر يوجه قصيدته
 او كأنه يوجهها الى امرأة قادرة على فهمها . وقد لا تكون
 مرغريت سوى صورة وهمية من الصور التي كان الشاعر
 يتخيلها . وفي الكتاب اسم « بوت » صديقة العهد الاخير ، التي
 سنتكلم عنها فيما بعد . ومن تراها تكون دلفين وهبوليت ،
 « المرأتان الهاكتان » اللتان اوحتا الى بودليو قصيدة هي من
 روائع الشعر الفرنسي ، كما اوحت اناكتوريا ، وصيفة سافو ،
 الى سوانبرن قصيدة هي من روائع الشعر الانكليزي ؟ فهل
 اخترع بودليو اسمي تينك المرأتين الباديتي العزة كأميوات
 راسين ؟ معلوم ان بودليو كان كبير العطف على امثال
 هاتين الضالتين في صحراء الغريزة الجنسية ، وقد شاء ان

يجعل اسميها عنواناً لكتابه ، فنصح له بعض اصدقائه بأن لا يفعل ، ففكر في تسميته بـ « اليمبوس » ، ولكن الاسم بدا غامضاً . وفي نهاية الامر وجد الكاتب هيبوليت بايو عنوان « أزهار الشر » . وهذا التوفيق أنقذ اسم هذا الكاتب الحامل من النسيان .

لقد وصفنا عهداً كالحاً من حياة بودليير . ولحسن الحظ لم يلبث الشاعر ان خرج منه . فالحاجة ارغمته على الاقلاع عن حياة البطالة وعلى الشروع في الانتاج الادبي وهو في الرابعة والعشرين من عمره .

في الرابعة والعشرين !

من يصدق ان امرءاً يشيخ ويقنط من الحياة ويكتب روائع خالدة قبل ان يتجاوز الرابعة والعشرين من سنه ؟ وهل بوسع القراء أن يصدقوا ان اجمل وأعرق وأكمل ما في « أزهار الشر » من القصائد كتب في الثانية والعشرين أو في الثالثة والعشرين ؟

اعطى بودليير أولى مقالاته لجريدة « كورسيرو ساتان » أو « القرصان الشيطان » وكانت كبيرة الرواج في ذلك الزمان . وسرعان ما تبه ذكره بفصلين كتبها عن معرضي التصوير لعامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ . وكان بودليير وافي التهيؤ لكتابة

هذين الفصلين ، فقد ألمّ بهذا الفن الماماً كافياً اذ انفق قسماً من ثروته على شراء اشياء فنية نادرة . ولم تمنعه حياة الشبق والبطالة من ان يطيل النظر في لوحات اللوفر . وبما انه لم يزر ايطاليا ولا اسبانيا ولا هولندا ولا انكلترا ، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي اذاع الروائع الاوروبية كما هي الحال اليوم ، فقد راح الناس يتساءلون مستغربين عن سر ذلك الالهام العجيب الذي جعل بودليز اعظم ناقد فني في فرنسا تفرّد في خلق مقياس صحيح للجمالية .

وثمة سرٌّ آخر وهو الخلاف العظيم بين الرجل والكاتب . فالرجل هو مريض بأعصابه ، لا يعرف كيف يعيش . هو متهمك ، خليل ، متجعرف ونصف مجنون . والكاتب هو من المتفوقين في الادلاء بالاحكام السليمة ، يصوغ في أمتن وأتقى نثر ما يخطر له من الخواطر في الفن . وهو الوحيد الذي استطاع ان ينظر نظراً جلياً في زمنه وان يتجه تواءاً الى ما هو جميل وأهلاً للبقاء .

هذا الشاب هو استاذ في الجمالية . هذا المجنون هو حكيم . هذا المختل هو ، حين يكتب ، الضبط نفسه ، والدوق نفسه ، والاتزان نفسه .

يذهب الى معرض للصور ، ثم يخرج منه ويدخل الى خمارة فيطلب نبيذاً أبيض . وفيما هو يشرب ويدخن يكتب

بهذه وتوعة صفحات رائعة هي في الواقع أجزم ما كتب في المقارنة بين « أنغر » الذي يحترمه و « ديلاكروي » الذي يحبه . وكان الناس يعترفون بأهلية بودليو ويضعونه في المقام الاول من النقّاد الفنيين . ففي ذلك العهد البريء السعيد ، ذلك العهد الذي كان يخالف عهدنا هذا في أنه يرفع الفن عن درك المساومات القذرة ، كانت بضع صفحات كافية لتقرير مقام رجل ووضعه في موضعه الحق .

شجعه الاقبال على قراءة مقالاته فراح يساهم في تحرير جملة صحف . ونشر بضعاً من قصائده التي كانت يلقيها على مسامع أصدقائه . وأخذ يبذل كل ما في وسعه ليكسب لنفسه مركزاً ولو ادبياً . سوى أن حياته الخاصة بقيت تسوء ، فالدائنون كانوا يرهقونه ، وكان يهرب منهم فيعيش في الفنادق . وقد ظلّ كذلك حتى موته .

أما جان دوفال فكانت تكتفي بالقليل إذ لم تكن مطامحها تتجاوز الخمر والتبغ واللذات الليلية . وكانت باستطاعتها أن تخرج لرصد الفرص شأن الفتيات اللواتي من جنسها ، ولكن الخمر كانت قد عملت عملها فيها فأذبلتها وجعلتها غبية بلهاء .

لقد رأيت من الاستقامة والضرورة أن أخفي في هذا

الكتاب شيئاً من أخطاء بودلير وعيوبه . ومن الاستقامة والضرورة أيضاً أن أُبين كم قاسى من عواقب هذه الأخطاء والعيوب ، ولم يجد أحداً يعينه على ما به . فأنسيل بقي مصراً على أن لا يدفع له فلساً واحداً فوق الدخل الشهري الضئيل ، ولم يكن أوبيك ليحب أن يسمع باسمه بعد مهزلة الانتحار وتركه البيت العائلي مرةً ثانية ، ولم يكن بوسع السيدة أوبيك أن ترسل إليه إلا قليلاً من الدراهم يستعين بها في أواخر الشهر على سد رمقه .

كان بودلير بحاجة الى تعزية ، ولكن أين كان باستطاعته أن يجد هذه التعزية ، هذا الاسعاف الروحي ؟ فعدا الخلجة الناهكة العقيمة لم يكن بوسع جان أن تقدم له سوى الهذر والثروة وسوى طُلُبات دراهم . وكانت مسيحية بودلير من الغرابة بحيث لم يكن بالامكان أن يتوقع منها أية تعزية . كانت ديانتها نظريةً أشبه ما تكون بالمانوية . كانت يؤمن بوجود ابليس وبوجود الرداءة والشر ، وكان يعتقد أن الحب العاطفي كلام باطل ، وأن الحب جسديّ صرف ، وليس الحب الجسدي سوى شكل من الاشكال الشيطانية للشر . بهذه العقيدة وصل بودلير الى الايام المحمومة التي تقدمت ثورة ١٨٤٨ . فسلك فيها مسلك رجل أحمق . ولم يكن ينتظر منه غير ذلك . فبودلير كان يحبل كل شيء من شؤون

السياسة . وبصفته رجل فن كان يحترق الديموقراطية والبورجوازية معاً . ولكن له بعض أصدقاء بين الشباب الجمهوريين كلوي مينار ، وثوري ، وليكونت ده ليل ، وبيار ديبون . وكان يكره العسكريين لأن أوبيك منهم ، فضلاً عن ان جميع اسباب التمرد كانت مجتمعة فيه ، فهمام في الشوارع ، خلال الفتنة ، حاسر الرأس . وسرعان ما وجد نفسه الى جانب الجمهوريين ، قتبع الجمهور واستفاد من نهب مخزن اسلحة فاستولى على بندقية صيد وزنار خرطوش ، ولكنه لم يحشُ البندقية . وفي الواقع ان بودليو كان يلهو ساخراً من كلا الطرفين . وكان يصرخ بملء فيه : « يجب ان نقتل الجنرال أوبيك ... »

ماذا كان الجنرال أوبيك يفعل خلال هذه الحوادث ؟ كان يواصل الاستفادة من حظه السعيد . فقد عينه العهد الجديد سفيراً في اسطنبول ، وهذا التعيين صدر عن شاعر كبير هو لامرتين ، بطل الساعة .

ليس من الصعوبة في شيء ان نتبين شدة الغضب التي استحوذت على بودليو حين اتصل به النبأ ، أياكون أوبيك سفيراً ، وسفيراً للجمهورية ، ويكون الشاعر الذي عينه شاعراً خطيراً هو لامرتين ؟ في كل هذا ما يحمل بودليو على ان ينتزع من نفسه كل حبة للعهد !

سافرت كارولين اوبيك مع زوجها الذي كان يعبدها ،
وهي بعد في الخامسة والخمسين من العمر وعليها مسحة وافية
من الجمال - وبقي بودليز المتمرد في مكانه ايضاً ، لا مال
لديه ولا مركز له !

وفي الحقيقة ان اكثر ما كان يشغل بودليز منذ ١٨٤٥
لم يكن التفاؤل الثوري ولا حظه العاثر ، بل كان نقل
مؤلفات الكاتب الاميوكاني ادغار بو الى اللغة الفرنسية . وهو
عمل شاق تسخر له بودليز غير متوقع منه اي مغنم ، وقد
واصله حتى موته ، مضجياً لاجله بشطر كبير من احلامه
الادبية . وهذه التضحية التي بذلها لاذاعة اسم اديب مجهول
مات بائساً على بعد الوف الكيلومترات من بلده هي ولا
شك اكرم وانبل جهد ادبي عرف حتى ذلك العهد ، قام به
محتل يتكلف القول بأن لا قلب له وبأنه يضحك من
العاطفيات .

ما كادت الفتنة تضع اوزارها حتى عاد الدائنون - وكانوا
قد ذعروا حيناً - الى ارهاق بودليز بمطالباتهم المزعجة .
ففكر لكي يتملص منهم في الالتجاء الى الاوياف ، فيكتب
هناك القصص التي ليس لديه منها الا العناوين وهي : المعشوقة
الغبراء ، تعاليم مسخ ، الجريمة في المدرسة ، المسوخ ، الحب
قاتل ابيه ، المشبعة المعبودة ، عشيقة الابله ، المرأة الساقلة .

ولكن هذه القصص بقيت عناوين لحسن حظ بودليو
 وحظ الادب بوجه عام . واذا دل اعلانه عن هذه العناوين
 على شيء فانما يدل على شدة احتقاره للناس الذين تنحصر
 مقدرتهم - على زعمه - في الاحتفال بالاشياء التافهة القذرة .
 ومهما يكن فقد صح عزمه على ان يعتكف اعتكافاً مجدياً
 في ديجون . ولا يعلم احد لماذا اختار ديجون . وما كاد يصرف
 بضعة ايام في احد فنادق هذه المدينة حتى ضجر ونخاب أمله .
 وفي تلك الاثناء صدر مرسوم بنقل الجنرال اوبيك من
 سفارة اسطنبول الى سفارة مدريد . فجاء الجنرال الى باريس
 وصرف فيها مدةً أثاحت لشارل ان يجتمع بأمه . وكان
 ذلك في شهر حزيران ١٨٥١ . وبديهي ان امه مذنبه وأنها
 تركته ، فلعلها ، ولكنه لا يزال يحبها ويشوقه ان يقوم معها
 ببعض نزعات في ضواحي باريس . سوى ان السيدة اوبيك
 ما لبثت ان سافرت الى اسبانيا ، فعاد شارل الى جان
 وعاش معها في غرفتها .

وكانت جان قد شاخت وغلظت وزادت دناءتها وابتدأ لها .
 فهي بشعة وكذابة ورديئة وخليعة ، تواصل خيانة عشيقها
 مع من هبّ ودبّ من الرعاع ، ولا تكتفه ذلك بل تشتمه
 لانه أصبح لا يقدر حتى على اطعامها . وكثيراً ما كانا
 يتخاصمان ويتضاربان ، ولا يضع حداً لصراخهما الا صراخ

الجيران .

ومساء يوم ضرب بودليير جان بالمسرجة فأدماها ، ولم يستطع في النهاية مواصلة العمل في ترجمة بو ، فحمل أوراقه ومعه الانكليزية ومضى . ولكنه لم ينقطع عنها الانقطاع كله ، بل بقي الى النهاية يسعف بأشياءه القليلة تلك المخلوقة البائسة التي أحبها .

عاد بودليير الى طوافه الاليم من فندق الى فندق ، هزلاً رث الثياب ، محروم العيش ، مقروح النفس ، لا يدعمه الا الرغبة الصوفية في احياء ذكر ادغار بو ، هذا الشاعر المسكين الذي كان بودليير ينظر اليه نظره الى أخٍ روحي له . وما عثم الامر ان أخذت جارت تزوره لتؤنبه وتنتزع منه ما بقي في جيبه من الدراهم . وفي غرة العام ١٨٥٣ احيل الجنرال اوبيك على التقاعد ، فترك سفارة مدريد وعينه الامبراطور نابوليون الثالث شيخاً ورفعته الى رتبة ضابط كبير في جوقه الشرف .

وكان ان اشتد اليأس في قلب بودليير فأحس بحاجة قصوى الى امه ، فصار يتردد عليها في شرش ميدي بباريس ، فيطلب مثل دراهم ويفاتها بحاجته الى محبتها وحنانها .

كانت الحياة القاسية قد حطمت قناعه الزجاجي وفلّعت سحنه المتعجرفة ، فصار يشعر بحاجة الى الحنان ، الى الحب

النقي ، الى الحب الروحي ، بعد حياة الشبق والفجور بين
ذراعي عشروت السوداء .

وعندئذ بدأ الشطر الثاني من حياته العاطفية ، وسنرى
كيف سيصادف في نفسه تفتّح شكل جديد من الشعور
المسيحي . فلئن يكن بودليو مذنّباً فهو تعسُّ مقدار ما هو
مذنّب . وكلما مرت السنون سوداء نمت في قعر نفسه الرغبة
الشديدة في الايمان .

بدأت هذه الازمة بحاجة غامضة وان قوية الى الاستسلام
ليس الى جسد امرأة فحسب ، بل الى قلب امرأة قادرة على
ان تفهم معنى الشوق ، الى الحب النقي .

كانت ماري دوبرن ممثلة شابة تلعب على مسرح «الغيتة» .
وكانت نابغة بفنها وجميلة مقدار ما كانت عذبة الخلق ذات
استقامة وحشمة . وكانت تسعف بعملها والدين اقعهما الفقر
والمرض . فشغف بودليو بها وصار يجتمع اليها في مقصورتها ،
وقدم اليها قصيدة « نشيد الحريف » وهي من روائع « ازهار
الشر » ، ولكن القدر لم يشأ ان يستمر بودليو طويلاً في
حبه لهذه المخلوقة الصادقة المستقيمة المحبة .

وهناك ماري اخرى كان بودليو يهتم بها في اثناء اهتمامه
بماري دوبرن . وكل ما نعرفه عنها انها كانت « نموذجاً » وأن
بودليو لم يذكرها الا باسم ماري x... ويظهر ان ماري x...
هذه قررت العدول عن تعاطي حرقها عقيب حديث دار
بينها وبين بودليو . ويظهر ايضاً انها كاشفت الشاعر بانها
تضمر لرجل آخر حباً عظيماً . وهذه المكاشفة خلقت بينها وبين
بودليو قصة تثبتتها رسالة غريبة بعث بها الشاعر اليها ، ونجّزىء

منها شطراً يساعدنا على التسلل الى اعماق نفسية بودلير :
 « أمن الممكن يا سيدي ، أن لا اراك بعد اليوم ؟
 هذا السؤال هو اهم ما يشغل افكاري لاني صرت في حالة
 لا اقوى معها على تحمل غيابك ، فهو حرمان لقلبي أليم .
 « حين علمت انك عدلت عن حرفتك ، واني كنت
 السبب في هذا ، شعرت بحزن عظيم ، واردت ان اكتب
 اليك ، مع اني لا احب كتابة الرسائل لانها تورث الندم
 على الغالب . ولكن ما همني ما دمت قررت نهائياً ان
 اكون لك الى الابد ؟

« أتعلمين أن حديثنا الطويل يوم الخميس كان غريباً حقاً ؟
 فهذا الحديث هو الذي بدل حالي وحملني على كتابة هذه
 الرسالة .

« رجل يقول : احبك ، ويتضرع ، وامرأة تجيب : انت
 تحب ؟ أنا ، ابدأ ! رجل واحد له جبي ، والويل لمن يجيء بعده ،
 فلن ينال الا اهلالي واحتقاري . وهذا الرجل نفسه يدعك
 لتحديثه عن رجل آخر ولا تحديثه الا عن هذا الرجل ...
 ان هذا الاعتراف لا يكتفي بأن يجعلك في نظري امرأة
 تشتهي ، بل يتجاوز ذلك الى جعلك امرأة تحب لصراحتها
 وشبابها وحيويتها وجنونها .

« لقد خسرت كثيراً من هذا التفاهم لانك كنت من

الجزم بحيث اضطرت الى الازعان في الحال . اما انت ،
يا سيدتي ، فقد رجحت منه كثيراً لانك اوحيت الي احتراماً
عظيماً . اتوسل اليك بان تعودي فأكون وادعاً ومتواضعاً
في رغائبي . لقد استحققت احتقارك حين اجبتك باني سأكتفي
بالفئات ، فقد كذبت .

« آه ! لو كنت تعلمين كم كنت جميلة ذلك المساء ! لا
اجرؤ على المضي في الشاء فالثناء مبتذل ، ولكن عينيك
وفمك وكل شخصك الحي يمر الآن على عيني المغضتين ،
فأشعر بأن الامر جازم لا مرد له .

« عودي الي ! اني أسألك ذلك راعياً على ركبتي .
ولن أقول لك انك ستجدينني بدون حب ، سوى انك لن
تستطيعي ان تمنعي روحي من التحويم حول ذراعيك ،
ويديك المتناهيتين في الجمال ، وعينيك اللتين تقطنهما حياتك
كلها ، وكل شخصك الجسداني المعبود . لا ، انا أعلم انك لا
تستطيعين ذلك . ولكن كوني مطمئنة ، فأنت في نظري
معبودة لا يمكنني ان ادنسها .

« أنت في نظري الحياة والحركة ، ليس لان اشاراتك
سريعة وطبيعتك عنيفة فحسب ، بل لان عينيك تستطيعان ان
توحيا الى الشاعر حباً خالداً . كيف أعرب لك عن شدة
حيي لعينيك وقدري لجمالك ؟ فجمالك يحوي ظرافتين متناقضتين

لا تتناقضان فيك ، هما ظرافة الطفل وظرافة المرأة .

« آه ! صدقيني ، فأنا أقول لك من اعماق قلبي انك خلقٌ معبود واني احبك بشدة . انها لعاطفة طاهرة هذه التي تربطني بك الى الابد . أحبك يا ماري ، وهذا لا شك فيه ، ولكن الحب الذي أحسه نوحك هو حب المسيحي لربه ، فلا تخلعي اسماً ترايباً مخجلاً على ذلك الجاذب العذب النقي الذي يربط روحي بروحك بالرغم من ارادتك .

« كنت ميتاً فأحييتني ، فأنت لا تعرفين كل ما انا مدين لك به . فقد غرفتُ من عينيك الملائكيتين غبطة كنت أجهلها . فدلّني على سعادة الروح بكل ما فيها من الكمال . فأنت من الآن فصاعداً مليكتي وهواي وجمالي . انت مني الشطر الذي خلقه جوهر روحي .

« بك ، يا ماري ، اصبح قوياً وعظيماً ، وكبيتراك أخذ لوري . فكوني ملاكي الحارس ، كوني عروس شعري وعذرائي ، وخذي بيدي في طريق الجمال .

« تكلمي علي بكلمة . اتوسل اليك ان تيجيبي بكلمة ، بكلمة واحدة . ففي حياة كل منا ايام مبهمه او حاسمة تدفعنا فيها محبة او نظرة الى الحماقة او الى الجنون ! أوكد لك اني اعيش هذه الايام ، فكلمة منك تكون الشيء المبارك الذي ينظر اليه ويتعلم عن ظهر قلب . لو

تعلمين كم احبك ! دعيني ارتقي على قدميك وقولي كلمة ...
لا ، لن تقوليها !

« سعيدٌ ، الف مرة سعيدٌ ذلك الذي تخيرته بين جميع
الحلق ، انت الملائى حكمة وجمالاً ، أنت الموهبة والروح
والقلب ! اية امرأة تستطيع ان تحل محلك !
» لست اجروء على ان اسألك زيارة ، فسترفضين سؤلي .

لذلك سأنتظر ، سأنتظر سنين ... وحين ترينني متشبهاً ، في حبي
لك واحترامي ، بتجرد مطلق ، تتذكرين انك بدأت
بالإساءة اليّ وتعترفين بانك اتيت عملاً سيئاً . لقد حلا لك
ان تطرديني ، ويحلولي ان اعبدك . هذا امر مفروغ منه .
لا نعلم هل ردت النموذج ماري x ... على هذه الرسالة
أم لا . واكبر الظن انها عزتها الى مجنون او الى مختال ولم
ترد عليها ، فالقصة لم تترك اي اثر غير هذا . وبوسعنا ان
نفترض ان هذه المرأة احسنت صنعاً باهلها الوعود الخلابه
التي انطوت عليها هذه الرسالة الهاذية . ففيها كل
شيء ، فيها الخداع ، والوفاة ، والتفخيم على طريقة الفرد ده
موسه الذي كان بودلير يحقره ، وفيها اشياء صيانية ،
واحترام مضحك امام نموذج ، ووحشية متكررة ، وخبث ،
واستحياء .

والواقع ان هذا الشاعر العظيم والجمالي العميق كان

بالرغم من مزاعمه أبله ، غيباً امام النساء ، ومختلطاً معقداً يكاد يصدق اكاذيبه او يصدقها . ففي حين كان يهذي كما رأيناه « على شرف » ماري x... كان يحب امرأة اخرى ويكتب اليها ما يكتبه لتلك .

أجل ، كان بودلير يكذب ، ويكذب على نفسه ويستخدم شعره ونثره لغايتين . ومع هذا كان صادقاً في قننيه ان يُحِبَّ وان يُحِبَّ لغرض غير الشبق والفجور .

ومن هي المرأة الاخرى التي كان يحبها ؟ هي امرأة صادفها من زمن طويل عند المصور الجميل فرنان بواسار ده بوانديه ، في اجتماعات فندق بيمودان . وهذه المرأة تدعى السيدة ساباتيه .

وصلنا الى الدور الغرامي الكبير الذي مثله بودلير ، او على الاقل الى دور أسمى من دور الدعر الذي مثله جان دوفال .

ومن هي السيدة ساباتيه ؟ إنها تستحق ان تُدرس عن كتب .

ولدت السيدة ساباتيه ، واسمها الحقيقي اغلائي سافاتيه ، في مدينة ستراسبورغ عام ١٨٢١ ، أي في العام الذي ولد فيه بودلير . ولسنا نعرف شيئاً عن عائلتها وشبابها الاول ، وعن غرامياتها قبل الحادث الذي سنرويهِ . ففي احد الايام

فما روجه ده بوفوار والفرد ده موسى والفرد تاته وارفر
وغوتنغر وهيبوليت موسيلمان وغيرهم من حلقة «الشباب
الذهبي» ينظرون من شرفة فندق بيمودان الى المستحاثات
على خفة النهر، رأوا ثلاث نساء شابات يخرجن من الماء
وبينهن واحدة ربطت شعرها الاشقر بغلالة وردية، فأثرت
فضولهم فعدونهن بدون كلفة. ولم تحتج اغلائي سافاتيه،
صاحبة الغلالة الوردية، اكثر من هذه الزيارة لتصبح عشيقة
هيبوليت موسيلمان. وكان موسيلمان هذا صيرفياً يجمع الى
الغنى والشباب مرحاً وظرفاً.

وما عتم الامر ان أدخلت اغلائي سافاتيه بعض التعديل
على اسمها فصارت ابولوني ساباتيه. ولدنا في مذكرات
جوديت غوتيه وصف جميل للمسكن الذي أثته لها موسيلمان
تأثيلاً رائعاً في شارع فروشو. وفي جملة رياش هذا المسكن
صورة زيتية للسيدة ساباتيه طلبها موسيلمان من المصور
غوستاف ريكار. واليك وصف جوديت غوتيه لصديقتها
السيدة ساباتيه: «ثلاثة جواذب كانت تتدرك منها للوهلة
الاولى هي الجمال والمرح ورقة الحلق. كانت طويلة
القامة، متناسبة، جميلة اليدين. وكان شعرها الكستنائي
المذهب المتناهي في النعومة يسترسل من تلقائه موجات غنية
بالنور. اما لونها فكان مشرقاً، وتقاسيمها منتظمة، وفهما

صغيراً ضاحكاً . اما قوامها الظافر فكأن يوزع حولها
النور والسعادة . »

وهذا الوصف لا يختلف عما نشعر به حين ننظر الى
اللوحة التي صورها ريكار . وهناك تمثال عارٍ لكليسنجر ،
صهر جورج صند ، لا يخفي عنا اية دقيقة من جسد السيدة
ساباتيه الرائع . واسم هذا التمثال « المرأة المدوغة » .
وليست الحية سوى ذريعة لتمويج الجسد تحت تأثير التشنج
الغرامي والالم معاً .

وفي الواقع ان السيدة ساباتيه كانت على جانب كبير من
الجمال . وكانت في الثانية والعشرين من عمرها حين صادفها
موسيلمان وجعلها عشيقته . وفي الحال صح عزمها على ان
تمثل دور « سيدة خطيرة » ، وان تفتح بيتها للعطاء . ومرعان
ما صار بيتها يجتمع الادباء كتيوفيل غوتيه ، وفلويو ،
وريبو ، وبويه ، وبريو ، ومكسيم دي كانت ، وهنري مونيه ،
وديماس الاب ، والفردده موسى ، وريكار ، وكليسنجر ،
وفيدو ، وميسونيه وغيرهم .

ويقول غوتيه ان السيدة ساباتيه « لم تكن تسمح لاحد
بان يغازلها ، وكانت تفرض على الرجال ان يتحدثوا امامها
بمسائل رصينة ومجردة . » وفي الحقيقة انهم كانوا ينطلقون
في الكلام الفاحش ما يشاؤون . وكانت السيدة ساباتيه

تصفي بابتسامتها المهادنة الى حكايات تندى لها اليوم جباه
 كثير من النساء . اما فارس هذه الحكايات فكانت على
 الغالب تيوفيل غوتيه . فالقصص القذرة كانت اطيب ما يحلو
 لهذا « الفنان الصرف » ان يقص على المائدة ، وكان يسميها
 « الخنزريات » . ولكن هذا التجاوز لم يكن يجرح موسلمان ،
 وكانت السيدة ساباته تكتم استيائها منه . ومما لا شك فيه
 ان احترام الرومنطيين للمرأة كان اسطورة كاذبة كما كان
 احترام فرسان القرون الوسطى لها .

كان بودليو يتردد على « صالون » السيدة ساباته ، ولكن
 الحاشية كانت تمقته لاصغائه باحتقار نصف مكشوف الى
 احاديث افرادها . وكانت تتحمل بصعوبة آراءه الحاسمة ،
 وصوته الساخر ، وتصنعه ، واعجابه بنفسه ، وحذلقته ، واحاديثه
 المعقدة . وكثيراً ما كان يجيء وقد اعتنى بلباسه الى حد
 التكلف المضحك ، فاحتذى حذاء عجيباً ، وارتنى قميصاً
 مقوراً تقويراً واسعاً حول العنق ليظهر بياض جيده ، فيبدو
 في الواقع كأولئك المحكوم عليهم بالشنق . وكانت وجهه
 غريباً ، وقد عدله مراراً . ففي شبابه كان يرسل شعره معكساً ،
 ثم شعثه وارخى لحيته كما يرى في اللوحة الزيتية التي صنعها
 ديروى . وبعدئذ صبح عزمه على ان لا يترك سوى شاربيه
 وذباية من لحيته ، وان يقص شعره غير تارك منه سوى خصلة

عوجاء على جبينه لكي يحجب ، ولا شك ، بدء قرعة قد تكون ناجمة عن داء الزهري الذي كان ماضياً في الفتك به فتكاً بطيئاً . وفي آخر الامر رأى من السخف والبورجوازية - على حد قول غوته - ان يحتفظ بالشاربين والذباب ، فحلها جميعاً .

ومن الصور الزيتية التي صنعت له تبعاً يمكن تتبع سير الداء الرهيب الذي كان يعمن في تخريب جسده . فعيناه السمراوان كانتا تشردان احياناً ، وكانت طيتان عميقتان ترددان تقعرأ على جانبي فمه ، وشفته السفلى تغلظ فتبهط متشجرة واذا هي تناقض رصانة النظر وصقالة الجين العريض . وفي اواخر ايامه أدرك الصلع مقدم رأسه وبقي الشعر غزيراً على رقبته وصدغيه ، فاعاره ذلك منظر كاهن رديء ذي ضحكة شيطانية أو منظر ممثل متخصص في النوع المأتم . كان بودلير القاتم ، الجاف ، الغامض ، يصفي الى تيوفيل غوته وهو يقص «خنزيرياته» على مسمع السيدة ساباتيه . وكان بالامكان ان يصدق عنه كل شيء الا شيئاً واحداً وهو أنه يحب الرئيسة ، وهو اللقب الذي اعطاه الرفاق للسيدة ساباتيه . وهذا العشق الخيالي للسيدة ساباتيه لم يكن يمنعه من أن يمارس الدعر الناهك مع جان . سوى انه كان يشعر ، كما اسلفنا ، بحاجة الى حب ممزوج بالعطف والاحترام والحنان ،

الى ذلك الحب الذي كان بودليز يبأى الاعتراف بحيوته وبقائه .

ولم تكن ابولوني المرحه « بودليزية » ، فقد كانت بودليز يحتقر النساء او يؤلهن ، ولا يكلف نفسه فهمن . كان تعساً يشعر بحاجة شديدة الى الخان . وكانت السيدة ساباتيه طيبة القلب وجميلة . فتحول اليها ، ولكنه بدأ بتشويه كل شيء كما لوف عادته . بدأ بتأليف قصة معقدة ، ببناء سيدة ساباتيه خيالية كما بنى من الزنجية البائسة عشروت سوداء . وسرعان ما صارت الشقراء والسمرء موضوع مقابلة ، فجان هي الجسد والشیطان والحوث ووحش الظلمات ، والرئيسة هي الروح والملاك والصديقة المثلى وملاك الاضواء الخاصة . وما عثم الامر ان صار بودليز لا يتالك نفسه عن اظهار شعوره . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ أيكاشف السيدة ساباتيه بحبه ؟ ولكنها قد تنطلق في الضحك فيموت خجلاً . وعندئذ صح عزمه على ان يبعث اليها بقصائد ورسائل مغفلة . وقد جرء على مواصلة هذه اللعبة الصيانية مدة خمس سنوات تقريباً . والدليل على رداءته انه فيما هو يكتب رسائله الى الرئيسة كان يكتب الى ماري ... تلك الرسالة التي قرأناها عن ذلك الحب الابدي !

قلنا ان بودليز راح يشحن الى السيدة ساباتيه قصائد

ورسائل مغفلة مواصلاً الاحتفاظ بقناعه الصقيعيّ الساخر في اجتماعات يوم الاحد بشارع فروشو . ولدينا صيغُ هذه الرسائل ، فهي من نوع الرسالة التي بعث بها الى ماري ... فالمزيج من الروحانية المسهبة والرغبة المقموعة هو نفسه ، وتأليه الحبيب والاختلال العاطفي والنموّ التصوري هي نفسها .

يعرب بودلير في رسائله هذه ، بإنشاء معقد وغني معاً ، عن تَمَيُّنه الحصول على حماية عروس او ملاك ينجيه من الشرير ، ويخلصه من ميوله الذاتية ، ويهديه صراط العمل ، ويمضي به الى الخلاص عن طريق الدأب والمجد . وفي هذه الرسائل يؤله بودلير السيدة ساباتيه كما أله جان دو فال ! فأبولوني هي « بياتريس » ... وعشيقة موسيلمان المتساهلة في سماع « الخنزريات » هي مصدر كل خير ... ولا ننسَ ان هذا كله أعطى قصائد رائعة . ولا ننسَ ايضاً ان شعر بودلير هو اعظم واخلد مخاتلاته اذا كان الشعر نتيجة استيحاء يعبر عنه بكلام رائع ، وعندئذٍ يكون معظم الروائع الفنية مخاتلات او مشوهات او اكاذيب لتضليل واقع الحياة المضجر .

كتب بودلير الى السيدة ساباتيه : « لست في نظري لأفتن النساء ، جميع النساء ، فحسب ، بل أنت ايضاً أعزّ واثمن

المواجس... لقد عرفتِ ولا شك كل انواع التمليق وصرت
لا تفرحين الا لشيء واحد وهو ان تعلمي انك تعملين
الاعمال الصالحة ، وانك تعملينها وانت فائمه وبدون ان
تشعري ... فحين ارتكبت حماقة ما اقول في نفسي :
« بودي ان لا تدري بها ! » وحين اعمل عملاً حسناً اقول في
نفسي : « انه ليقربني اليها بالروح . » لا ادري ، هل يتيح لي
الخط السعيد ان اجتمع بك فأحدثك بنفسي عن سلطتك
عليّ ، وعن الاشعاع المستمر الذي خلقته صورتك في دماغي ؟
على انه يسعدني في الآونة الحاضرة ان اقسم لك من جديد
انه لم يسبق لأحد ان احب حباً اكثر تجرداً واحتراماً من
هذا الذي اضمه لك . قيل انه مرّ في الحياة شعراء عاشوا
كل حياتهم شاخصين الى صورة حبيبة . والواقع ان الوفاء
هو دليل من أدلة العبقريّة . »

والواقع ايضاً انه لم يتفق لاحد ان ناقض نفسه كما
فعل بودلير . فها هو يتكلم كالذين كان ينعتهم بالعاطفين
البلاء . ولكنني وددت من صميم قلبي وانا اقرأه لو كان
صادقاً . فقد صور لي انه ، بعد تلك الاكاذيب وذلك الفشل
الطويل والبؤوس الاليمه ، فهم قيمة الحب ، ليس الافلاطوني
بل الحب الجسدي الوفيّ الممزوج بالاحترام والغيرة والتعزية ،
الحب الذي يدعم العمل ، ويرسم الواجب ، ويوجب القنوط ،

ويمنع الانعزال الروحي الرهيب في صحراء البشر . ولو انه استطاع في الحقيقة ان يفهم ذلك لتبدلت حياته المبدعة اي تبدل ، ولربما ربح عشرين سنة من العمر ، وربح العالم خمساً أو ستاً من الروائع انقى واعظم من «ازهار الشر» . ولتعد الى موضوعنا .

لا شك ان في رسائل بودليير شيئاً صادقاً هو رغبته في ان يجد كتفاً صديقة يسند اليها جبينه التعب وقلبه الموجوع . ففي السيدة ساباتييه رأى بودليير سلامة القلب اولاً ، ثم رأى الجمال الذي لا يفسد شيئاً . وبديهي ان امرأة طيبة القلب غير جميلة لا تحسب شيئاً في نظر اديب جمالي كبودليير . ارسل الشاعر الى السيدة ساباتييه عشر قصائد مرفقة بهذه الرسالة :

«اسألك يا سيدتي ، الف معذرة ، على هذه القوافي الركيكة البلهاء . وقد كان بودي ان لا انكبك بها ، ولكن ما العمل؟ فأنا طماع كالاولاد وكلالرضى . وافكر في المحبين حين اتألم . وكثيراً ما افكر فيك شعراً . وحين تولد الاشعار لا أقوى على اخفائها . وفي الوقت نفسه اتخبأ كمن يخاف السخرية . أليس في الحب شيء مضحك في نظر الذين لم يصابوا به ؟ » وما هي هذه القوافي الركيكة البلهاء ؟ هي من اروع قصائد «ازهار الشر» . هي «اعتراف» ، و «الفجر الروحي»

التي بلغ فيها جمال الاسلوب والفكر حد الكمال ، و« المشعل الحى » ، و الزجاجة ، و « الى المسرفة في المرح » وغيرها .
على ان بودلير يظهر في هذه الاخيرة كما هو في الواقع ، يظهر فجأة بكل وحشيته ، ويخلع عنه القناع ليبدو تحته وجه ذلك الداعر المريض الذي اجادت تثقيفه عشثروت السوداء .

واليكم بعضاً من ابيات هذه القصيدة :
« استهي ليلة ، حين تدق ساعة اللذات ،
ازحف فيها نحو كنوزك ، بدون ضجة كالجبان ،
فاعذب جسدك البهيج ، واثخن ثديك المسامح ،
واحفر في جنبك المذهول جرحاً عريضاً ،
وخلال هاتين الشفتين الجديدتين الاشد ألماً وجمالاً
- يا لها لذة مدوخة ! - اقطر فيك سمّي ، يا اخت ! »
انها لعلى جانب كبير من القذع والوحشية . والالماع الى « السم » مخيف في رجل يداوي مرضاً عضالاً كمرض بودلير . ولا نزاع في انه كتب هذه القصيدة بعد ليلة داعرة مع جان التي كان يواصل امتلاكها . ولكن كيف وجه هذه القصيدة (وهي في جملة القصائد التي شجبتها المحكمة فيما بعد) الى المرأة التي سماها ملاكه الحارس ، الى عروس الشعر والعداء ؟ الحقيقة ان بودلير لم يكن شفي ، وانه بقي يمزج

احلام حبه الأمل بالانات والشتائم كرجل تعود ان يمقت
المرأة ويحتقرها فيما هو يطلبها ويشتهيها .

وماذا كان بإمكان السيدة ساباتيه ان تظن بتلك الرسائل والقصائد؟ كانت تُترهى بها وتغبط على الغالب الكثير . ففي هذه القصائد لغة لم تألف مثلها في لسان موسيلمان او في ألسنة الضيوف من رجال الادب واصحاب « الخنزيريات » . كان ثمة رجل يرفعها الى مصاف الملائكة ، وكانت على جانب من المعرفة يسمح لها بأن تدرك ان شعر هذا الرجل في غاية الجمال ، فهل تُراها فكرت تفكيراً جدياً في الوصول الى معرفة هذا الرجل ام آثرت ان تترك هذا الحادث في جوه المبهم؟ لا نعلم الا ان الامر بقي جملة سنوات على منوال واحد . ولكن ان نكن نجمل في اي وقت جزرت السيدة ساباتيه صاحب الرسائل والشعر فنحن لا نجمل انها حرزته . فبتفحصها ضيوف « صالونها » واحداً واحداً توصلت بذلكها الاثوي الى الاعتقاد بأن الشاعر المجهول الاسم هو هذا المتصنّع ، هذا المذهب الساخر بودليير . سوى انها تجاهلت الامر لتدع للمغامرة حديثها وظرفها .

ووصلنا الى اولى اشهر العام ١٨٥٧ . وهو اهم عهد في حياة بودليير .

ففي نيسان توفي الجنرال اوبيك ، فتملص ابن زوجته من موضوع غضبه ومقته ، واصبحت السيدة اوبيك ارملة للمرة الثانية . وبما ان الجنرال لم يدخر شيئاً فلم ترث سوى ريش داره في باريس وعدد من الجياد والمركبات اضافت ثمنها الى النفقة التي قررته لها الدولة والى ما كانت تملك من ميراث زوجها الاول . ويبلغ مجموع هذه الثروة نحواً من الفين وخمسمائة ليرة ذهبية . وقررت الاعتكاف في دارها الصيفية الصغيرة بهونفلور .

راح شارل يساعدها في ترتيب هذا كله كأنها فرحة ب وفاة اوبيك وبعودة امه بكليتها اليه ، اليه وحده ، كما كانت زمن حادثته . واقسم ان يعتدل ويبر بأمه وان يذهب حيناً بعد حين الى هونفلور فلا يطلب من امه دراهم ، بل يعطيها . وقطع لها عهداً بالانقطاع عن الافيون والانصراف الى العمل المجدي .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان قد تعرف الى الناشر بوله مالاسيس . وقرر هذا الاخير نشر مجموعة القصائد المنتظرة من زمن طويل . وصدرت « ازهار الشر » فأثارت الشكوك الى حد ان النيابة العامة قررت ملاحقة الشاعر والناشر بجرمة الاساءة الى الدين والآداب . وقد عين يوم ٢٠ من آب موعداً للمحاكمة . عندئذ نزع بودليير القناع ، وفي الثامن

عشر منه بعث الى السيدة ساباتيه باول رسالة تحمل توقيعيه .
 وكان يعلم ان الرئيسة قد حزرتة اذ قالت له شقيقتها يوماً
 ضاحكة في أنفه : « ألا تزال تحب شقيقتي وتبعث اليها
 برسائل رائعة ؟ »

قال بودليز في رسالته الى صديقه ان اثنتين من القصائد
 التي شجبتها النيابة العامة « وستجري محاكمتها » نظمتا في تكريمها
 وهما « الى المسرفة في المرح » و « كلك » . ورجا منها بالخاح
 ان لا تفشي شيئاً مما قد يقوله لها . ثم لمسح اليها بانه يود ان
 تتوسط لاجله لدى القضاة . قال : « كانت الامبراطورة تشد
 ازر فلوبيز في قضية « السيدة بوفاري » ، فانا تنقصني امرأة . »
 وجمع الى رسالته نسخة من كتابه مجلدة تجليداً خاصاً .
 وكانت السيدة ساباتيه ذات نفوذ عريض ... فاراد
 بودليز ان يستفيد منه . وكان يفتش عن وسائل للدفاع
 فيذهب الى سنت بوف ويستنجد بالقضاة والاصدقاء . وفي
 ٣٠ من آب انتهت المهزلة القضائية بالحكم على بودليز بمادة
 الطعن على الآداب العامة لا على الدين . ويقضي الحكم بالغاء
 ست من قصائد المجموعة ، وبغرامة قدرها ثلاثمائة فرنك يدفعها
 بودليز ، وغرامة اخرى قدرها مئتا فرنك يدفعها الناشر .
 وبديهي ان « ازهار الشر » راجت في اليوم التالي للحكم
 رواجاً كبيراً . وقد طبعت منذ ذلك العهد اكثر من مئة

مرة . وفي الساعة التي اكتب فيها هذا ، ١٩٢٧ ، ينتظر البودليرون بفارغ الصبر ان يرد القضاء الى بودليو حقوقه وشرفه بالغائه الحكم الذي اصدره في العام ١٨٥٧ . ولا ادري لماذا يلح اشياح بودليو في طلب الغاء هذا الحكم ، فانا لا يسوؤني ابداً ان تبقى مهزلة القضاء لاصقة بمجد رائعة تتمتع باعجاب عالمي .

وربّ متسائل ماذا فعلت السيدة ساباتييه حين كشف بودليو لها عن حقيقة امره في الساعة التي ذاعت فيها شهرته ؟ لم تفعل اكثر من انها سكرت فجأة بالمجد - بمجد ادبي زادت قيمته حملة شنتها الصحافة على الشاعر وحكم اجمع الشباب المثقف على استنكاره واعار بودليو وجه شهيد من شهداء الجمالية . وكيف لا تسكر ابولوني ساباتييه بمجد يحرزها شاعر انقطع لها زمناً طويلاً بصبر وتكتم واحترام تدعو الى الدهشة ؟ وكان هذا الشاعر يختلف اختلافاً كبيراً عن موسيلمان وعن سماجة غوتييه . وقد اخطأ السيد فرانسوى بورشه بزعمه ان ابولوني ، وهي امرأة اباحية ، ظنت ان عشيقاً يحكم عليه بالطعن على الآداب يستطيع ان يحييها بلذات جسدية جديدة . فالسيد بورشه من الكتاب الذين اجادوا تصوير بودليو في حياته الخاصة ، ولكنني اعتقد انه اخطأ في اساءته الظن بالسيدة ساباتييه . فهذه الاخيرة

لم تكن الفضيلة بعينها ، وكانت تعرف من الحب الجسدي كل ما يمكن ان يعرف ، فلم تخرج الى بودليز ليعلمها شيئاً في هذا الباب ، ولكنها كانت سليمة وطيبة ، فلماذا ينكر عليها اعترافها بالجليل لثابرة رجل ذي قيمة وشهرة تعتقد انه هائم بها ؟ لو ان السيدة ساباتييه أرادت ان تحون الرجل الذي يتفق عليها مع هذا أو ذاك من الاباحيين الذين حولها لوجدت الف فرصة ، ولكنها لم تفعل . ولئن تكن استسلمت الى بودليز فلائها اذغنت الى فطرة المرأة حين تحب . فالجاذب الروحي والتصوري في اشد النساء تحفظاً يؤدي حتماً الى اعطاء الجسد . وليست الهبة الجسدية سوى تكميل للآخرى عند جميع النساء اية كانت تربيتهم وطبقتهن .

مرّ من ١٨ الى ٣١ آب ١٨٥٧ اثنا عشر يوماً كانت كافية لاستنباط قصة بيسيكولوجية على جانب من الغرابة بطلاها من جهة رجل تعب منهوك سئم الحياة الشهوانية ، يضطرب في ازمة روحية شديدة ، ويصور له انه قادر على بذل جهد عظيم ليستعيد حياته الطبيعية ، - ومن جهة اخرى امرأة جعلها هذا الرجل مثلاً اعلى ، وهي ليست بالمعبودة التي يتوهمها ولكنها طيبة القلب جميلة وتشعر للمرة الاولى ولا شك بانها مشربة الروح بعذوبة حب خيالي يختلف كل الاختلاف عن تلك اللذة الجسدية التافهة التي لم تعطِ حتى

ذلك العهد ولم تأخذ غيرها . وماذا صدر عن اجتماع هذين الشخصين ؟ هل صدرت عنه وثبة الى الحب الشريف ، الى الحب الاكمل ؟ ستجيبنا عن هذا السؤال الرسائل المتبادلة التي لدينا .

لم ينتظر بودلير ردّ معبودته على رسالته ليذهب اليها . فالرسالة تحمل تاريخ ١٨ ، والمحكمة جرت في ٢٠ . وفي الثاني والعشرين ساعة هذه كان الشاعر منهمكاً بتنظيم دفاعه فلم يفسح له في ساعة من الوقت . ولكن في اليوم التالي بعد ان حكم عليه في جو مشبع بالعراك والمجد ، ذهب اليها واتسم الحديث بسمة الغرام الشديد .

ورب متسائل هل حصل وصال جسدي في تلك الزيارة الاولى ؟ ليس في الرسائل ما يؤكد ذلك . ولكن حصلت اعترافات وتدفقات قلبية الى حد ان ابولوني رددت في ردها على رسالة ١٨ آب كل ماقالته في تلك الزيارة :

« انا اليوم اكثر هدوءاً وطمأنينة ، واستطيع ان اقول لك ، من غير ان تتهمني بالمبالغة ، اني اسعد النساء جميعاً ، واني ما شعرت مرة بأني احبك كما اشعر الآن ، وما رأيتك يوماً ، يا صديقي الالهي ، جميلاً كما رأيتك في سهرتنا يوم الخميس . »

ولا شك في ان تلك السهرة لم تخل من قبلات لاهبة

ووعود . فهذه المرأة ، كما نرى ، تهب نفسها بدون سوء ظن .
وما همّها غضب موسيلمان او لم يغضب ، فهي تحب ، وتشعر
بتلك الحاجة النسائية الى الاعتقاد بأنها تحب من زمن طويل
الرجل الذي لم يخطر لها قبل خمسة ايام في بال .

واين ومتى حصل الامتلاك الجسدي ؟ لا نعلم . واكبر الظن
انه حصل في مسكن السيدة ساباتييه التي كانت على ما يظهر
حرة في بيتها ، وكان عشيقها الرسمي يزورها في اوقات معينة
او يبلغها زيارته مسبقاً . ولكن المهم هو نتيجة ذلك الاتصال
الجسدي بين شخصين بلغا الحالة الروحية التي اتينا على وصفها .
وهذه النتيجة كانت خيبة أمل مرة لكلا الشخصين —
وكان بودليير سببها .

اكبر الظن ان الاتصال ... الحاسم حصل في ٢٧ او ٢٨
من آب . وماذا جرى في ذلك اليوم ؟ جرى ان عروق
بودليير خائته ، وانه ، امام الحبيبة التي اعطت نفسها بكل
اخلاص ، دفع دفعة واحدة ثمن كل خطيئاته ، وكل عاداته
المشؤومة ، وانحرافاتة الغرامية ، وكل ما فتش عنه هذا
المسكين في احط النساء منذ ثاني عشرة سنة . فهو لم يستطع
امتلاك نفسه واخضاع جسده المتلف له . وكان أن تهيّج
شهوته التخيلية افضى ، امام الحقيقة الحية ، الى عجز مطلق
عن امتلاك العشيقة الوحيدة الجديرة بالحب .

معلوم ان كثيرين من الرجال عرفوا هذا النوع من
 الفشل الذي كان ستندال الساخر يسميه « فياسكو . » وهو
 وان يكن مكروهاً في كل وقت ، الا انه شنيع مخيف في
 نظر حيي وجل ومتعجرف مريض باعصابه كبودليز . ولا
 شك ان بودليز عرف الفشل اكثر مما عرف الفوز ،
 وقد رأينا الوسائل التي كانت جان دوفال تبتدعها له ...
 ولكن الامر امام خلايق من هذا النوع ليس بذى بال ،
 وهو من الامة بكان أليم حين يحلو للطبيعة ان تحرم امرءاً
 امتلاك المرأة الوحيدة التي يشعر نحوها بالحب الكامل ،
 الحب الجسدي والروحي !

بديهي ان النساء الذكيات اللواتي يعرفن الحياة يفهمن
 هذا النوع من الخور ويعذرنه اذ لا يحبلن ان مرده ، على
 الكثير الغالب ، الافراط التخيلي الذي ينقل الشهوة الى الدماغ ،
 وان هذا الخور او هذا الضعف يمكن ان يزول في المرة
 الثانية ، على ان لا يغم صاحبه وان يتذرع بالصبر . وكانت
 السيدة ساباتييه عارفة بأسرار المضجع وبطبائع الرجال ،
 فاعتقدت ان « صديقها الالهي » مضطرب فكبت له تقول :
 « تخيل الي اني لك منذ اليوم الاول الذي رأيتك فيه .
 فافعل بي ما تشاء فانا لك جسداً وروحاً وقلباً . »
 ولا ريب ان السيدة ساباتييه لم تجرؤ على استعمال

بعض الوسائل التي كانت تستعملها جاث للتغلب على حالة
 الحور التي حلت بعشيقها . لم تجرؤ على استعمال تلك
 الوسائل مع انها تجيدها ، ليس لشيء الا لانها تحب بودليو .
 وقد كان على بودليو ان يقول لحبيبتة : « انك تحبيني كما
 أحبك ولا تجهلين أني عصبي ، فدعيني آلفك بعدوبة ، وعندئذ
 يزول الدوار التخيلي الذي شدي . » ولكن بودليو المتعجرف
 لم يفعل ذلك . بل راح في اليوم التالي لفشله يفكر في
 هجر هذه المرأة التي أحبتها ، غير آبه الا لامر واحد
 وهو ان يمثل دوره بتفريقه اشياء مهيمنة في خليط من
 الكلمات الفلسفية الصوفية . واليك هذه الرسالة العجيبة
 بتاريخ ٣١ آب ، وهي مزيج من الخداع والمخاتلة والهديان :
 « أجيبك عن رسالتك الاخويتين . تقولين لي : « يحيل
 اليّ أني لك منذ اليوم الاول الذي رأيتك فيه . فافعل
 بي ما تشاء فأنا لك جسداً وروحاً وقلباً . » يجب عليك
 أن تحفي هذه الرسالة ايتها المسكينة ! أنفقين حقيقة
 ما تقولين ؟ ثمة رجال يسجنون من لا يدفع ما عليه ، ولكن
 لا أحد يعاقب من ينتهك حرمة عهود الحب .
 « قلت لك امس : ستسني ، وستخونيني والذي يسليك
 اليوم سيضجرك غداً . وأضيف اليوم الى ذلك : ولن
 يشقى ويتألم إلا ذلك الابله الذي يحمل الاشياء الروحية

على محل الجد . أصارحك بأنني لست أوّمن كثيراً بالنساء ،
فروحك جميلة ولكنها روح امرأة .

« تأملي كيف انقلبت حالنا بإيام قليلة ! كلانا يخشى
الاساءة الى رجل مستقيم لايزال سعيداً في حبه (كأن
اربع سنوات لم تكف بودلير لكي يفكر في موسيلمان) .
وكلانا يخشى أيضاً هبوب عاصفة لأننا نعلم - وأنا على
الخصوص - أن هناك روابط يصعب حلها (هذه الجملة
تتعلق بجان . فقد ضربها وهجرها ، ولكنه ظل يستخدمها
عند الحاجة) .

« لاياام خلت كنت إلهة معبودة . اما اليوم فانت
امرأة . وما أدراني أن الغيرة لن تتسرب الي من عينيك
التي ترسلان الابتسامات والظرف الى جميع الناس !
« لا اجروؤ على ان أعيد قراءة ما كتبت لئلا اضطر الى
تعديله ، اذ يخيل الي اني افرغت في هذه الرسالة شيئاً من
طباعي الرديئة . وداعاً ايها الحبيبة . حين احمل معي
عطر ذراعيك وشعرك ، احمل ايضاً الرغبة في ان اعود . ياله
هاجساً لا يطاق ! »

لا أفهم كيف ان عالماً رصيناً كاوجين كريبه يرى في
هذه الرسالة « حاجة ملحة الى الصدق ، وفطرة ولاء وشرف ،
وصراحة قاسية تكلف صاحبها غالباً لانها تصعق آماله في

السعادة؟ فانا لا أرى فيها إلا رياء وهذياناً وتهرباً مزهواً
وفراغاً في المعنى وفي القلب ، وقساوة في لهجة تتصنع
العدوبة فتفضحها هذه الصرخة الوحشية : «أنا لا أوّمن بالنساء!»
وهذه الـ «أنا» نجدها دائماً ولا نجد كلمة عن الألم الذي
يسببه لغيره ! وليس في النساء من لا يجرحه هذا الفشل
الحلقي الأشد كرهاً من ذاك .

سوى ان ابولوني لبثت مدهوشة وحزينة . ولو انها سيدة
خطيرة لفكرت في كرامتها ، ولكنها جرّبت ان ترى
بقلبها لا بفكرها . والفطرة الانثوية هي على الغالب ترياق
ضد الاراجيف المعقدة ، وتذهب تواءاً الى الهدف . قالت السيدة
ساباتيه ردّاً على تلك الرسالة العجيبة :

«أتريد يا صاحبي ، ان اقول لك فكري ، فكري القاسية
التي تؤمني ؟ إنك لا تحبني . ومن هذا تصدر تلك المخاوف
وذلك التردد في توطيد علاقة لن تلبث في أحوال كهذه
ان تصبح مصدر غموم لك وعذاباً لي . أو ليس لديّ دليل
على ذلك في عبارة من رسالتك جمد لها دمي؟ «أنا لا أوّمن
بالنساء!» أنت لاتؤمن لانك لا تحب . رب ! ان هذه
الفكرة لتعذبني . وكم اود ان أبكي على صدرك ! يخيل اليّ
ان هذا يسعفيني . ومهما يكن فلن أغير شيئاً من اجتماعنا
غداً ، فانا أريد ان أراك لأمتحن نفسي كصديقة . آه ! لماذا

أردت ان تراني من جديد ؟ - صديقتك التعسة . »
 هذه لهجة الحب الصريحة . ولكن بودليو كان قد صَحَّ
 عزمه على الانسحاب تدريجاً . وكان يخشى كثيراً ان يلقي
 على كاهله أعباء امرأة قد يهجرها موسيلمان اذا علم بعلاقتها .
 ويعترف بأن هذه المرأة لا تسكره ، فهي بيضاء شقراء
 بدينة وهو لا يحب الا السمر العجاف . وقد يكون فكر
 في مرضه وردعه ضميره عن ان « يقطر سمه » في ابولوني ،
 حسب الرغبة الخفيفة التي أعرب عنها في احدى قصائده
 الغرامية . ولكن كان احرى به ان يفكر في هذا كله قبل
 ذلك الحين ، فيرفع عنها وعن نفسه تلك المحنة المضحكة الاليمة .
 ومهما يكن فقد واصل تردده على شارع فروشو باذلاً
 جهده في تقصير زياراته . واستمر تبادل الرسائل بينه وبين
 السيدة ساباتييه . واليكم رسالة تدل على ما كانت هذه
 الاخيرة تتصف به من الفهم ورقة الشعور والتسامح :
 « ما هي هذه المهزلة او المأساة التي تمثلها ؟ لا اكتيك
 اني جد قلقة . فتصرفك منذ ايام هو من الغرابة بحيث
 صرت لا افهم منه شيئاً . ألا بحقك انوني يا صديقي ، فانا لا
 اطلب الا ان افهم اية ربح ميمته هبت على تلك الشعلة
 الجميلة ؟ أتكون عاقبة تفكير رشيد ؟ اذا كان ذلك فهذا
 التفكير جاء متأخراً . كان عليّ ان اعتصم بالرصانة حين

جئت اليّ . ولكن ما العمل ؟ حين يرتجف الفم ويخفق القلب
تذهب الافكار السليمة ... لا حاجة لان أقول لك اني
كنت اتوقع ما ورد في رسالتك . فانت على ما يظهر تخاف
خوفاً هائلاً ان تجد نفسك معي وجهاً لوجه . مع ان هذا
ضروري .

« لا اقوى على الرغبة في ان اقول لك بضع كلمات
بشأن ما حصل بيننا . فقد كنت رسمت لنفسي خطة مشبعة
بالكرامة . ولكن لم يمضِ نهار حتى ضعف قلبي ، مع ان
غضبي كان مشروعاً . اسمع يا شارل ، ماذا يجب علي ان
اعتقد حين اراك تهرب مني إلا انك تفكر في تلك التي
يفصل بيننا روحها ووجهها الاسود ؟ »

هذه صرخة التوبيخ الوحيدة من امرأة عرفت واقع
الامر . فبعد الفشل الاول جرت ولا شك تجارب فاشلة
ارادتها ابولوني ، ولكنها وجدت نفسها الى جنب رجل
مصقّع لم تستطع الاهتداء الى الحركات المحجلة التي بوسعها
ان تؤثر فيه ، وعندئذ احست انه يفكر في المرأة السوداء
فغضبت ، وكم كانت غضبها مشروعاً . فحتى ذلك الحين لم
يعاملها احد مثل المعاملة التي جرؤ عليها هذا الشخص العجيب
الذي دخل الى حياتها السعيدة ليكدرها ويهينها بجميع
السبل . وفي نهاية الامر اهدت الى اللهجة اللازمة :

« أشعر انك اذلتني وازريتني . ولولا احترامي لنفسى
لشمتك . على انى اتمنى لك العذاب لان الغيرة تحرقني . يا
لها ليلة صرقتها ، ولكم لعنت فيها هذا الحب الظالم ! »
مسكينة ! لقد صوّر لها انها ادركت كل شيء بادراكها
مدى تأثير جان دو فال الجنسيّ فيه ، فأولتها شرف الغيرة
منها . ولكنها اكثر استقامة من ان تقيس وتزن سائر
الاسباب التي لدى بودليير .

وهكذا ختمت هذه القصة التعسة . وواصل بودليير
الذهاب الى شارع فروشو ، ولكن مع ضيوف يوم الاحد .
لو ان السيدة ساباتيه استطاعت ان تهدي هذا التائه
الضال الى الصراط القويم بما اوتيت من الموهبة في اعطاء
اللذة السليمة لكان نجحاً على الكثير الغالب . ولكنه تصرف
تصرفاً مقيتاً فضيّع آخر فرصة أتاحت له . اذ هي فقد
شقيت ولا شك ، ولكنها كانت تتمتع بصحة ممتازة وتجب
الحياة فشفت لحسن الحظ . ولم تضر اي حقد لبودليير الذي
لم يضر لها هو بدوره اي حقد . وبعد اشهر كتب اليها
يقول : « أعانقك » كرفيق قديم « احبته وسأظل احبه . »
وكان من وقت الى آخر يبعث اليها بهدايا صغيرة .

وانفصلت السيدة ساباتيه عن موسيلمان الذي مات باكراً
بعد ان بدّل عشيقاته مرتين . ولم يخبرنا أحد كيف عاشت

ومع من ، وكيف كانت نهايتها . وآخر ما نعرفه عنها هو هذا : في العام ١٨٦٧ حين كان بودليير ينتظر الموت ابكم مشلولاً في احد مستشفيات باريس بشارع دوم كانت صديقه القديمة السيدة ابولوني ساباتييه تتردد عليه بدون انقطاع .

وبعد ؟ كيف نسي بودليير او على الاقل كيف حاول ان ينسى هذا الفردوس المفقود ؟ بعودته الى جان ! لقد عاد اليها بدون فرح . فمن زمن طويل وهو يكرها ، ولكنه يعجز عن محاولة شيء آخر . فالداء كان يفنيه ويعذبه بمخاوف ليلية . وكان التفاوت عظيماً بين بودليير الشاعر والنقاد الفني الذي اعطى اصدق حكم في فنون عصره ، والعاشق المريض الحرق صاحب تلك المرأة البلهاء الرديئة البشعة السكيره . فما عثم الامر ان عاد النزاع بينها الى سيرته الاولى . فذهب بودليير الى امه في هونفلور وبقي عندها ستة اشهر . وفي احد الايام بلغه ان جان اصيبت بشلل في ذراعها اليمنى ، فهرول اليها وتدبر امر ادخالها الى عيادة ديبوى ، ذلك ان الشفقة كانت تتفوق في قلبه على سائر العواطف . وما كادت تشفى حتى خرجت من العيادة لان هذه الاخيرة لا تقدم كحولاً وجان بحاجة الى كحول . وآوت الى مسكنها مزودة بزجاجة من عرق السكر (الروم) . اما بودليير فكان قد سكن احد الفنادق وختم النية على العمل

يجد هذه المرة ، ولكن خائنه العافية . وكان الافيون يحركه
 دائماً الى القيء ويسبب له ضيقاً في التنفس . وظهر داؤه
 من جديد فعاد اليه الصداق والدوار . وفي شهر كالوت
 الثاني ١٨٦٠ اصيب باحتقان في الدماغ تخلص منه بسرعة .
 وكان لا يزال يعطف على جان فاستاجر لها في نوي مسكناً
 حسناً ، وهم بأن يقطن معها . ولكنه دخل عليها في احد الأيام
 فوجد عندها خلاسياً وقحاً غليظاً مستقراً كأنه في بيته .
 كان هذا الرجل شقيقاً لجان جاء ليعيش على حساب أخته ،
 يأكل ويشرب وينام ويروز بودليو ويقبسه . فاشتعل بودليو
 غضباً ، ولكنه آثر الهرب على الاصطدام به . وما عثم الأمر
 أن مرضت جان من جديد فنقلت الى المستشفى . ولما عادت
 الى بيتها علمت أن شقيقها باع كل الاثاث واختفى .
 أترانا وصلنا الى خاتمة تلك العلاقة الكريهة ؟ تقريباً .
 فنجد ذلك الحين صار بودليو يرى جان في القليل النادر ،
 ولا يراها الا لتبتز منه درهماه القليلة .
 وكأنه أراد ان يصلح سمعته ويحصل على إلغاء الحجز عليه
 فصور له ان يرشح نفسه لتقعد في الاكاديمية الفرنسية شعر
 بوفاة الأب لاكوردير ، ولكنه ما لبث أن انسحب بعد
 جملة زيارات لأعضاء الاكاديمية . وكان ان أعلن إفلاس الناشر
 بوله مالاسيس فلم يجد بودليو من ينشر له شيئاً من أوراقه .

وتشبث النحس في ركابه فساءت صحته كثيراً وتكالب عليه
البؤس . ولكنه بقي يتردد على الحارات ، وكثيراً ما
شاهد ليلاً في خمّارتي موزار وفالتينو . وكان وهو في
الثانية والأربعين من العمر كأنه في الستين .

وربّ متسائل أفي باريس أم في بروكسل ، عاصمة
بلجيكا ، صادف صديقه الأخيرة التي لا نعرف إلا العلم من
اسمها وهو بورت ؟ من يدري . واكبر الظن أن بورت فتاة
بروكسيلية جاءت الى باريس . ولدنا رسم لها بريشة بودليو
نفسه يرينا وجهاً غليظاً يعلوه شعر ثقيل مضموم في شبكة .
وقد كتب على الرسم العبارة التالية : « الى فتاة فظيعة ،
تذكر من مجنون كبير يبحث عن ابنة يتبناها ، ولم يدرس
طبائع بورت ولا قانون التبني . »

ماذا نفهم من هذا ؟

أوسع أحد أن يميز الصدق من الكذب في بودليو ؟

سمعت نفس بودليو مدينة باريس فحدثته نفسه بأن
يجرب حظّه في بلجيكا . فمني فيها بفشل ذريع . فحمل على
بلجيكا والبلجيكيين ، واخذ يلعن كل ما استنشقه وتناوله .
وفي احد الايام بلغ به اليأس مبلغاً شديداً ، فركب القطار
الى هونفلور ليعانق امه ويطلب منها ان تقي بعض ديونه

فوقتها... وما عثم الامر ان ذهب الى باريس فاجتمع ببعض اصدقائه . وخشي هجمة الدائنين فعاد الى «جسيمه» البروكسيلي . وبدل ان ينظم في بروكسل سلسلة محاضرات كما توهم ، كتب كراساً هاجم فيه بلجيكا بعنف ، وسخر من البلجيكيين .

وفي شهر اذار من العام ١٨٦٦ فيما هو يزور كنيسة سان لو في نامور ، يرافقه بوله مالايس وفليسيان روبس ، سقط على الارض واذا هو معقول اللسان ، مشلول الجهة اليمنى . فحملاه الى بروكسل ووضعاه في احدى العيادات وابلغا انسيل ، الحارس القضائي ، فخفف مسرعاً . وابلغت السيدة اوبيك ، وكانت في الثالثة والسبعين من عمرها ، فجاءت باكية لتجتاز آخر مرحلة من جليطة الامومة .

وفي شهر تموز انتقل المركب الحزين الى باريس ، ووضع المريض في عيادة الطبيب دوفال بشارع دوم . وبقي الشاعر الذي كتب « زهرات الشر » و « القصائد المنثورة » و « الفراديس الاصطناعية » شهوراً طويلاً لا يتم بسوى هذه الالفاظ : « لا ، كري لا ، لا » حتى وافاه الاجل في ٣١ من

اب ١٨٦٧ .

وفي العام ١٨٧١ ماتت كارولين اوبيك في هونفلور .
أما جان دوفال فيؤكد نادار أنه رآها في العام ١٨٧٠

تتناقل متوكئة على عكازتين . ثم كان انهيار الامبراطورية
والحصار والكومون ، فلم يهتم احد لمعرفة كيف انتهت
عشروت السودان وأين ؟ أفي المستشفى أم تحت رصاص
الفرساييلين أم في قطيع السوق المطرود ؟ وما يقال عن جان
يقال عن السيدة ساباتييه . فالمرأتان اللتان اشتهرتا في الحياة
التعسة التي عاشها بودليير توارتا غير تاركتين أي أثر !

رأيت من واجبي ان ألزم الانصاف التام في التحدث
 عن حياة بودليز الغرامية . ولا شك ان هذا العمل يبقى
 ناقصاً اذا لم اجمع بعض آراء في المرأة وردت في منشورات
 بودليز أو في أوراقه التي لم تنشر . وآمل ان يكون من
 وراء هذه الآراء فائدة لأنها تثبت أن هذا المريض في
 اعصابه ، هذا الشاعر الذي كان يفكر في الفن تفكيراً
 صحيحاً ، لم يكن قادراً في موضوع المرأة إلا على فهم بنات
 اللذة واللذة .

والواقع أن بودليز لم يعرف الا البغايا من النساء ،
 والخمارات القذرة من المجتمعات كأنه لم يكن يستطيع إلا
 الاشياء الزقاقية والفاحشة . وكل فلسفته في الحب قائمة على
 احتقار الحب وكره المرأة التي يتجسد هذا الحب فيها .
 قال : « الحب هو طعم البغاء . » وفي قصيدة « تسبحة الجمال »
 لا يطلب بودليز من الضمة الا ان تجعل « الكون أقل بشاعة
 والزمن أقل ثقلًا . » ولكنه لا يفهم إلا الخلجة ، وهذه
 الاخيرة لا تستطيع بمدتها القصيرة أن تجعل الزمن أقل ثقلًا
 والكون أقل بشاعة . ويقول بودليز إن « المرأة طبيعية إذن

هي قبيحة ، وهي الى ذلك وضیعة . » ویمتقر الزواج ویمقت
 الأمومة . ویقول أيضاً : « إن المرأة لا تعرف ان تمیز
 الروح من الجسد . فهي بلهاء كالبهائم . »

وفي كل مناسبة یتكلف بودلیو احتقار النساء ، فاذا
 صادف منهنّ عند أصدقائه طلب أن یُسقین ویمطین تبغاً
 لیصتنّ . وفي احدى الليالي قال لصديق له تزوج حديثاً :
 « قل لزوجتك الصغيرة ان تذهب الى فراشها فقد مضى الوقت
 ولا یفید الحديث مع هذه العصافیر اللطيفة . » وفي هذا
 رائحة حقد العاجز عن الحب ، بطل « فياسكو » ساباتیه .
 ویذهب بودلیو حتى الى استغراب التساهل في دخول
 النساء الى الكنائس . قال : « بماذا یمكنهن أن یحدثن الله ؟ »
 وصفوة القول ان ما كتبه بودلیو عن المرأة والحب
 یدل على أن الشهوة أعمت قلبه . ولكن الى جنب هذا
 الهذیان نجد أفكاراً یلیق جمالها وعمقها بیاسكال .

ومما لا شك فيه ان كلمة « حب » على جانب كبير
 من الالتباس ، وان مسألة العلائق بین الجسديّ والروحي ما
 ما تزال مطروحة على بساط النقاش . ولكن بودلیو اختار
 السطحي البحت فلم یخطّ اية خطوة في صعيد الخائف ، ولو
 فعل لانقذ صحته ووجد السعادة والابداع .

قلت في مستهل هذا الكتاب انه كان لبودلیو سرّ . وقد

آن لنا ان نتكلم عن هذا السر فنقول ان بودليو قد احب امه . لقد احبها حب العاشق حين كان في السابعة من عمره . وهي المرأة الوحيدة التي شعر بودليو نحوها بعاطفة الحب الاكيد . ولكنها لم تفهمه ولم يكن بإمكانها ان تفهمه ، فعرف جميع عذابات الغيرة والحرمات ، وأصيب من جراء ذلك بالشلل العاطفي . وعلى المرأة الاولى التي ملكها جسدياً ترمى بغضب ليقدر ويتقدر فينتقم من خيانة امه التي استسلمت الى ذراعي رجل آخر . وهذا الولد الذي صور له ان امه قد خانته بقي طول حياته ولدّاً من هذا القبيل . ولا ريب ان كارولين الطيبة لم تكن مسؤولة عما حل بوحدها ، بهذا الحبيب البنوي الذي بقي يعذبها اربعين سنة . ولم يكن مجنون بودليو واختلاله سوى استمرار لحداثته عقدته تخيلات غريبة .

لقد ذكرت جميع اخطائه ووصفت كل ما عاناه من ضروب الشقاء . ولكن هذا لا يمنع كون « ازهار الشر » تتألق تألقاً عجيباً في الشعر الفرنسي . فمن رواسب قدرة تعمل الطبيعة اوراداً جميلة . وبجوارث فاحشة وضلالات محزنة تسمح لبعض الخلق ان يبني قصائد رائعة . ألا فلنشكر بودليو على ما اعطانا ، واذا جرؤنا على اعطاء حكم فلا

ينبغي لنا ان ننسى غفران الموت، ولا الرأفة البشرية، ولا
ما يستوجب اللوم في كل منا .

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع الاتحاد، بيروت
في ١٢ آب ١٩٤٧

الحب

الذي لا يجروء على ذكر اسمه

اقرأ قصته الرائعة في

أوسكار وايلد

أمام القضاء

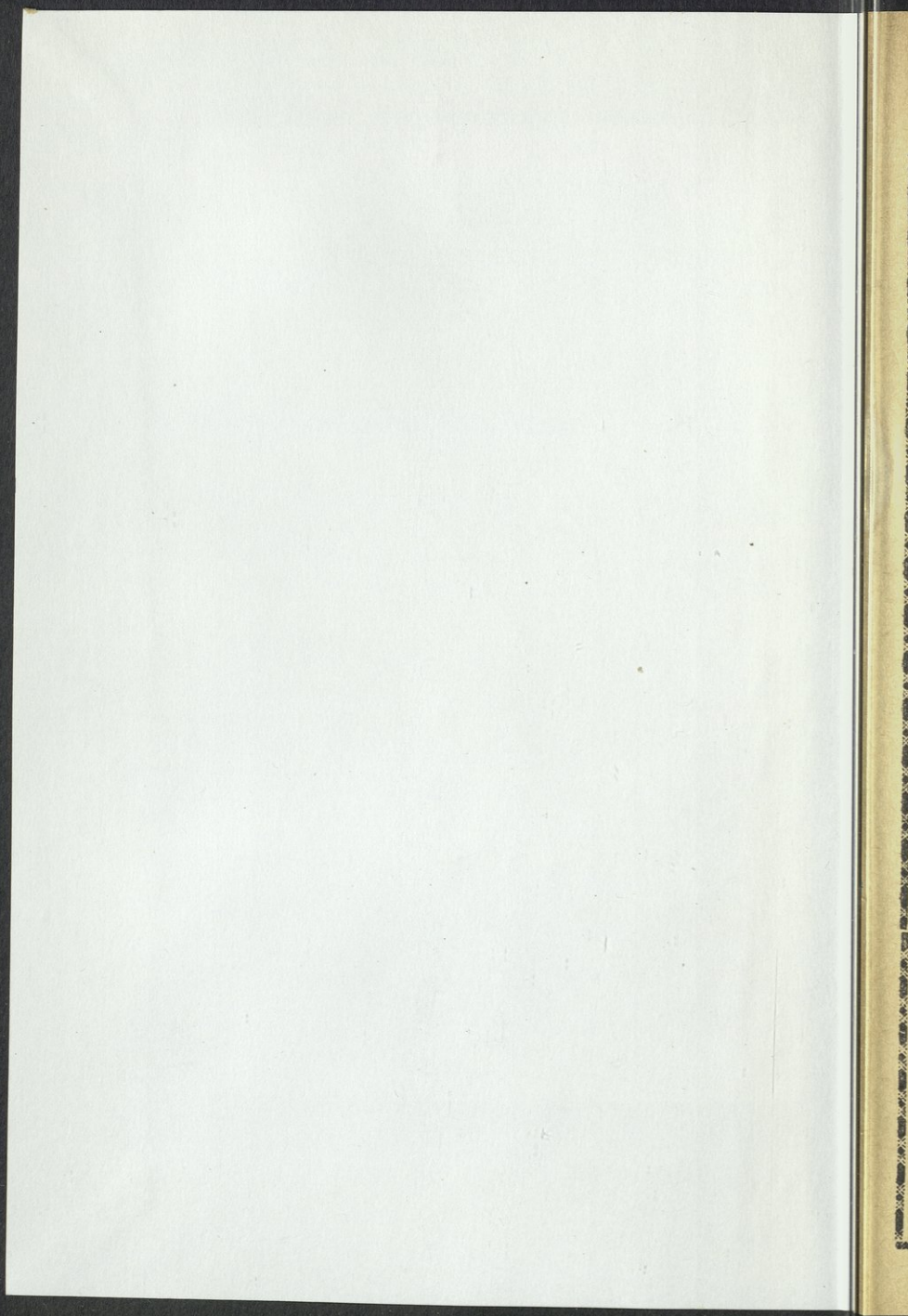
تأليف : مورييس رويستان

تعريب : الياس البر شيبك

صدر في منشورات دار المكشوف

اطلبه من جميع المكاتب العربية

ثمنه ١٥٠ قرشاً لبنانياً



CLUB LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AUB LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00496397

